معارج البوح

قصص قصيرة

عبد السلام عصمان

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

معارج البوح

قصص قصيرة

عيسى أبو يوسف اللموشي

معارج البوح

قصص قصيرة

عبد السلام عصمان

الخمس 2014

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

عبد السلام عصمان

معارج البوح

الطبعة الأولى : 2020 م

رقم الإيداع المحلي: 2018/328

رقم الإيداع الدولي: 9789959-25-916-5

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

الإهداء

- إلى هواة القصة القصيرة.
- إلى كل من ينحت حرف النجاة على مركب الضياع لترسوا القصة القصيرة في مرفأ الأمان.
- إلى أقلام المدينة التي تنزف نشوًا وزهوًا.

عبد السلام عصمان

2014م – 1435هـ

رصيـــف الثلـــج

لم يكن بوسعه أن يمدد أصابع يديه، فقد بنى الـــثلج قممـــاً على شاربه الأسود الكثيف والذي يكاد يغطي فمه، تصطك ركبتاه مرتعشة جامدة، لم يعد قادراً على الانتظار فقد ملَّ منه وملّه، سئم الرجل الكآبة والحيرة، ما عاد صبوراً يكظم غيظه، أوسعه الفقـــر المدقع معاناة، وأضناه الظنك والبؤس، ضجر من كل أشيائه ومـــا حوله، لا يزال ممدداً على رصيف اليأس لمرفأ المدينة العتيق التي كانت الأمواج قد أشبعته نخراً وهدماً، فلم يعـــد ذلـــك الرصـــيف شامخاً عتيداً، يفترش ناجي ابن الأربعين حولاً الأرض ويلتحـــف السماء! قليلاً ما يتأخر في العودة إلى بيته الرابض على قمة ربوة عالية في ضاحية المدينة. فهو يحرص الحـــرص كلـــه علـــى أن يرعى بعضاً من شئون والدته العجوز والتي تعـــانى أكثـــر ممـــا يعانيه ابنها ناجي، فهي قلقة على ابنها الوحيد ومشفقة عليه أيمـــا إشفاق، وتغدق عليه الحنان كله، فهي كثيـــراً مـــا تســـدى إليـــه بنصائحها التي لا تتوقف، وفي مقدمتها أن يجد عملاً وأي عمـــل، يركن ناجي إلى مرسمه وقتما يطبق عليه القلق بجناحيه، امـــتلأت أدراج مرسمه بالأعمال واللوحات الفنية النـــادرة، فهـــو رســـام بالفطرة ويعرف في مدينته وأهلها بالعبقري الهزلي، كثيـــراً مـــا يتنقل ناجي بلوحاته في أسواق المدينة عله يجني من بيعها نقـــوداً

تبقيه وأمه على عيش الكفاف، بيد أن المتسوقين ليس من بينهم طبقة الأثرياء برغم إعجابهم الشديد بروعة تلك اللوحات وبديع فنها.

يلملم ناجي لوحاته كعادته بعد أن يبارح الناس السوق، وقد لاقى من العناء والتعب ما لاقى، قبل أن تسقط الشمس وتتوارى خلف جبال بأقصى المدينة، يدخل بيته وليس في جيبه درهماً واحداً يشتري به رغيفا لأمه التي يسمع أناتها مصارعة الألم، تبتسم العجوز في وجه ابنها، مخففة عليه من حزنه ويأسه.

يلقى ناجي بلوحاته وسط أرفف مرسمه وهو يندب حظه العاثر، لم يتسلل اليأس إلى نفسه بعد، فما يزال يملأ صدره الإيمان بالله وتتملكه القدرة على مقارعة مصاعب الحياة، وقبل شروق شمس غده يترجل كذأبه كل يوم إلى المرفأ ويجلس إلى المقهى يحتسي فنجان قهوته الصباحي، لم يكد يكمل فنجانه حتى أبصر سفينة في أفق البحر تمنّى أن لو ترسو في هذا المرفأ، وفعلاً فقد كان له ما تمنّى، وبعد ظهر ذلك اليوم ولجت السفينة إلى المرفأ وعلى ظهرها المئات من السوّاح القادمين من مختلف أصقاع الأرض، وهمّوا بالنزول إلى اليابسة متجولين في مجاهل ودروب المرفأ العتيق، وعلى الفور يطلق ناجي ساقيه إلى الريح باتجاه بيته، ودفع باب بيته دفعاً حتى أضحى في قلب مرسمه

يجمع معظم أعماله وشتات لوحاته الفنية ويشدّها بإحكام ويقفل مهرولاً إلى حيث يرتاد ذلك المقهى وهو يئن من هول ما يحمل على ظهره من أعمال، أبصر ناجي الجموع من السائحين وهم يتمتعون بمناظر البحر وواجهات المدينة التي تطل من بعيد على ذلك المرفأ، وما أن بدأ في عرض لوحاته حتى تقاطر الجميع متهافتين على اقتناء أجمل اللوحات منبهرين بما شاهدوا، وأخذ يبيع الواحدة تلو الأخرى وبأثمان باهظة، لم تكد تمر ساعة واحدة حتى نفذت كل اللوحات ولم يبق منها شيئاً، وبرغم كل ما لاقى ناجي وعانى من ضنك الحياة وضيق حال اليد، وما كان يشعر به حيال مستقبله الذي يراه ضبابياً ورمادياً قاتماً، فلا يلوح له في الأفق المنظور بريق أمل يخرجه من نفق العتمة الذي قد ألفه، فما كان يخرجه من حالته سوى ريشته ومرسمه الذي ينفث فيه همومه ومعاناته، ومع كل هذا وذاك، وفي مساء كل يوم ومن خلف ستار نافذة مرسمه اعتاد أن يتتبع بناظريه فتاة أحلامه التي أحبَّها منذ صباه وَحَلُمَ أن تكون يوماً شريكة حياته، وهي أيضاً لم تكن بمنأى عن هذا المشهد الرومانسي المثير، فهي تتسمر أيضا خلف شباك غرفتها، فقد شغفها حباً، وبرغم سنوات الانتظار، لم تتح لهما فرصة لقاء بينهما أبداً غير أنهما تقمصا أدوارَ البطولة لقصة حب عفيف يعرفها صغار الحي قبل الكبار.

استمر ناجي في بيع لوحاته، مع قدوم أفواج السواح حتـــى انتعش وامتلأ جيبه بالنقود، وصار يخيل إليه أنه يطير بجنـــاحين، ليسكن في عش الحنان ويركن إلى الدعة والاستقرار والراحة التي لطالما تمناهما، عقد ناجي العزم وحقق أمنيته بالزواج من فتاتـــه التي أحب وصارت تشاركه حلو الحياة ومرّها وترعـــى شـــئون والدته العجوز وتقيم وزناً لحياتهما وتشجعه أيّمـــا تشـــجيع فـــي الاستمرار برسم اللوحات الإبداعية والسير في حقل الفن، لينـــال نصيباً من رزقه ويطعم أهله وينعم بالدفـء بعد سنوات الانتظـــار على رصيف الثلج.

نزيف الياسمين

كعادتها تخرج إيناس صباح كل يوم مترجلة تسابق ظلها، تسافر بين خيالها الواسع وأوجاعها، وبين ضياع أحلامها وأمنياتها، فهي بين مقصلة زوجها وسندان يأسها، غير أن هذا اليوم قد غابت عنه شمسه بفعل غيوم تلبدت وتراكمت في سماء بلدتها، لا شيء سوى شتاء قارص ببرودته، ممتع بأمطاره، بارحت الفتاة بيتها مرتدية معطفها الأنيق، تتجول عبر أزقة المدينة تتنقل تارة يميناً وتتجه يساراً تارة أخرى، فهي تسير بغير هدى، لا تعرف لها عنوانا ولا اتجاها، تعاقب ليل إثر نهار ومضى عام وراءه عام لم تظفر إيناس بما كانت تتمنى، لقد عيل صبرها وأنقطع من زوجها رجاؤها، ونفذ صبرها، فاستيقنت بأنه لا سبيل للنجاة من زوجها إلا بالانفصال عنه، لقد استطار غضبها من زوجها وهاج هائجها، واصطلت بنار حياته معه، فصارت لا تطاق، فقد زهد فيها زوجها، وما عاد يفتنه حسنها ولا دلالها، ولم يستهوه جمالها، فهي لهذا مسلوبة الفؤاد، مضرمة الأنفاس، تحاول أن تخفي أمرها فيفضحها دمعها، فهي لم تعد تملك أعنة قلبها، ولقيت من أمرها هذا نصبا، ولم تكن إيناس خليقة بهذه المحن ولا جديرة بهذا العذاب، وبذلك حملت لزوجها غلاً ثقيلاً، فنامت على الآلام وصحت على الأوجاع، ودمعها يجول على خديها كأنه

اللؤلؤ، وكلما خلت بنفسها واجتمعت مع قلبها، تحس الفتاة بأن عقد أحلامها قد تبعثر، فإذا جنّ عليها الليل أحست بإغفاءة خفيفة داعبت جفونها، تقول في نفسها ماعساني قد أذنبت حتى أصابني كل هذا العذاب، غير أنها تعودت ان تنفث همومها على أرصفة شوارع حيّها المتسعة ولا تعود إلى بيتها إلا بعد أن تخور قواها ويفعل بها التعب والإعياء فعلته، تعود إيناس إلى منزلها متجولة ومتتبعة ببصرها إلى كل الأشياء غير أن هذه المرة فقد حملت لها جولتها مالم تكن تحلم به حينما رأت معلمتها فاطمة بعد خمسة عشرة عاماً وذلك عندما كانت تمر من أمام بيت المعلمة إذ لمحت من خلال الشباك الحديدي لسور المنزل سيدة تجلس على كرسي متحرك وسط حديقة البيت تطالع كتاباً، تحت شجرة الياسمين الوارفة، والتي تبعث برائحة أزهارها إلى أنحاء الحي ويعبق بها المكان، وتنتصب إلى جانبها قطتها السوداء السمينة تمسح بذيلها على الكرسي الذي تجلس عليه المعلمة فاطمة، وقفت إيناس متسمرة غير مصدقة لما رأت، ورفعت يدها محيية معلمتها بإجلال وإكبار، بادرتها المعلمة بابتسامة ناعمة لم تستطع أن تخفي ما وراءها من أحزان وأومأت برأسها للفتاة قائلة: أدخلي تفضلي، حينها أسرعت إيناس بفتح الباب وهمت بالدخول وهي تتساءل ما بالها معلمتي؟ وما الخطب؟ وما الذي جعلها على هذه الهيئة

والحالة المأساوية؟ والتي تستدعي الشفقة والعطف، علّقت عيناهـا لحظة على وجه معلمتها، وتجمدت الكلمات في حلقهـا، وعاقهـا النشيج عن متابعة الكلام، فأمسـكت لتمسـح دموعهـا وتهـدئ أعصابها بما تملك من رهافة بالغة في العواطف، مـا أن قربـت إيناس من معلمتها حتى جثت على ركبتيها وجلست بإزائها وقبلت يديها بحرارة وشوق كبيرين فكان اللقاء أسطوريا بما فاض فيه من مشاعر دافئة وحزينة، وهنا رفعت إيناس هـدى بصـرها إلـى معلمتها، وقد شاع في وجهها بشر خفي فكلتاهما تقاسيان همومـاً، وتخفيان قصصاً محملة بفصول القهـر والتعاسـة والجـراح، لا يتحمل أوزارها إلا من عظم صبره، ثم قالت وفي صـوتها رنـة السعادة، وفي قلبها رقة لم تعهدها من قبل: هل عرفتني أستاذتي؟ وهل تذكرتني؟ واستطردت تقول: أنا لم أرك منذ أعـوام، كيـف حالك أخبريني ما بك؟ وماذا أصابك شـفاك الله؟ وطغـى عليهـا شعور كادت أن تغيب في فيضه، لم تقدر المعلمة علـى حجـب دموعها فصارت تسير على خديها، وقبل أن تجهش بالبكاء قالـت بصوت كأنهِ وسط بئر عميق: قد عرفتك أنت إيناس كيف لـي أن أنساك أيتها التلميذة النجيبة الخلوقة، إنها أقدار الله يا أبنتي ولـيس للمرء من هروب من ذلك، توقفت المعلمة قليلاً عن الحديث كأنما أعترضها خاطر مفاجئ فذهبت إلى أوج سرورها مزهوة فرحـة

وقالت: أخبريني كيف حالك؟ وأين تعيشين؟ وهل تزوجت؟ ومـــن أتى بك إلى حيّنا؟ أفاضت إيناس: أنا أسكن خلف حيّكم وقد انتقلت إليه قبل شهر، تزوجت منذ ستة أعوام ولم أرزق بالطفل، وأعمل في شركة للاتصالات الدولية بعـــد أن تخرجـــت مـــن الجامعـــة وتخصصت في تقنية المعلومات، وأما عن زوجـــي فهـــو رجـــل عبوس متأفف يكبرني بعشرين سنة، ولم أذق طعم السعادة والهناء مذ تزوجته، فما عاد الأمل يبتسم لي، ولم يتفتح زهر الرجاء فـــي وجهي، فقد بنى اليأس على روض شبابي سوراً حصيناً، ونظـــراً لعلاقته الوطيدة بوالدي رحمه الله، فقد نزلت عند رغبته الملحـــة بالزواج منه، وأنا الأن بصدد رفع دعوى قضائية لطلب الطـــلاق منه لكي ألتفت إلى نفسي واعيد ترتيب أوراقي من جديد، ســـألت إيناس معلمتها: أخبريني من يقوم علـــى رعايتـــك ومـــن يـــؤنس وحشتك؟ حينها تدخلت المعلمة مجيبة: أنا قد اوغلت فـــي العقـــد السادس من عمري ولحقـــت بـــي النائبـــات ومهمـــات الأمـــور وعظيماتها، انني أتقاضي مرتبي التقاعدي أصرفه على متطلباتي وشؤوني الصحية، واحياناً تحضر عاملة الخدمة المنزليـــة لكـــي تساعدني نظير بعض المال، قاطعت إيناس معلمتهـــا بقولهـــا: لا تدعيها تحضر مرة ثانية فأنا سوف أقوم بما تقوم به تلك العاملـــة وأكثر، وأنا على استعداد تام لكي ألبي كل طلباتـــك واحتياجاتـــك

اليومية، وأرجوا ألا تحرميني من رد بعضا من جميلك، فأنني لن أنس ما قدمته لنا من فضائل تربوية وتعليمية، قالت المعلمة: لا يا أبنتي لقد تعودت على هذا الحال ولست متعبة ولا مرهقة والحمد لله أقوم بصلواتي على أكمل وجه، المهم أن تهتمي انت بشؤونك وحياتك، أصرت إيناس على القيام بواجباتها الأخلاقية والاجتماعية تجاه معلمتها التي باتت وحيدة بعد وفاة زوجها وفي صباح اليوم التالي حضرت الفتاة إلى بيت معلمتها وقامت بكل ما يلزم من ترتيبات وإعداد الطعام، وقامت على نظافتها وإعطائها الدواء.

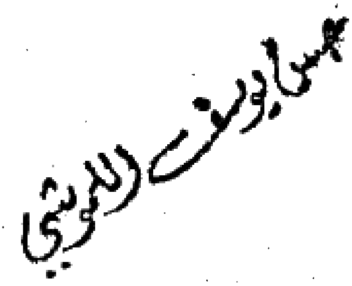
شعرت إيناس بأن بيت معلمتها فاطمة هو الملاذ الآمن الذي حظيت فيه بالراحة ووجدت في معلمتها الرفقة الأمنة وكثيراً ما تجلسان معاً تحت شجرة الياسمين لتجاذب أطراف الحديث، واستذكار الماضي بأفراحه وأتراحه.

تحصلت إيناس على حكم قضائي يوجب طلاقها من زوجها وتركت منزلها وآثرت البقاء مع المعلمة لتبقى قريبة منها ولتهتم بشؤنها على أكمل وجه حيث ارتبطت إيناس بمعلمتها أيما ارتباط، وأصبحت تدير شؤون البيت وتقوم بالترويح عنها وتخرجها في نزهات بحرية والأماكن التي تحبها.

لم تستجب إيناس لطلب يدها للزواج بالرغم من صغر سنها فهي في بداية العقد الثالث من العمر، بيد أنها حينما تحدق في

مرآة غرفتها الكئيبة لا ترى نفسها كذلك، فهـي دائمـاً تتحسـس تجاعيد بدأت تظهر عليها وتنذر بزيارة الشـيخوخة المبكـرة، إلا أنها شعرت بالسعادة الغامرة في خدمة معلمتها وعاشت بين أركان البيت تسع سنوات لم تمل من إسداء الخدمة وتقديم الرعاية لهـا، وذات صباح سمعت صوتاً يصدر عن معلمتها وحينما أسـرعت لمعرفة ذلك وجدتها تسجد في صلاتها وهي تنازع الموت وحينما أمسكت بها محاولة رفعها لفظت أنفاسها الأخيرة بعـد أن رددت الشهادتين وطلبت قبلها السماح من إيناس وفي ذات الوقت انهمرت الفتاة بالبكاء وحزنت حزنا شديدا، أقامت إيناس مراسم عزاء يليق بمعلمتها وبعد أيام حضر محامي المعلمة فاطمة إلى البيت ومعـه إخطار يفيد تنازل عن البيت لإيناس رداً للجميل وعرفاناً لما قدمته من تضحية غالية، جلست الفتاة تحت شجرة الياسمين، كما كانـت تفعل معلمتها، وأنبرت تكتب مذكراتها اليومية وحياتها مع معلمتها فاطمة خلال تسع سنوات، عكفت خلالها على ان تكون لمعلمتهـا الإبنة والأخت، رسمت خلال تلك السنوات الابتسامة الصادقة على وجه معلمتها، ولم تبخل يوماً أو تقصر في رعايتها وإضفاء أجواء المرح والسرور على نفس معلمتها فاطمة، فكانت عطر الضـمير الذي أنتشت به إيناس برغم كومة الأحزان، وحزمة الأسى التـي

تعيشها، وذكرت في تلك المذكرات التي أسمتها نزيف الياسمين أن التضحية نابعة من إيمانها بأن من علمني حرفاً صرت له عبداً.



انتظـــار

تقف لميس متسمرة جامدة، تتوسط نافذتها الطويلة، تسـند وجهها وسط كفها الأيمن النحيل البارد، بحركة عصبية تتحسـس أزرار قميصها المخملي، تحاكي مع ذاتها رتابة يوم الأمس والذي قبله، عيناها الواسعتين الغائرتين تكاد تخرج من تجويفهما، يخالها الآخر أنها أمام مشهد تتلو فيه نصا مسرحيا يونانيا، تغرق الفتـاة في لحظة وجد صوفي، تلتم شفتيها الجافتين، تعبث الريح البـاردة بالستائر البيضاء الناعمة المتدلية من أعلى تلك النافـذة الطويلـة والتي تضفي على الغرفة تمازجا لونياً غاية في الروعة والبهـاء، فجأة تقفز قطتها البيضاء السمينة إلي حيّز في أرضية النافذة التي تحتلها الفتاة، شعرت القطة بأن لميس في حالة ترقـب وحيـرة، فصارت تئن معبرةً عن انزعاجها بحركـات دائريـة وخطـوات متئدة، تلتصق بجسد الفتاة، تداعبها لميس بخربشات على رأسـها برقة ونعومة وبأطراف أناملها، شعرت القطـة بالـدفء جـرّاء مداعبتها لها حيث أغمضت عيناها ونامت كعادتها بجانب الفتـاة، تنبعث أصوات مختلفة صادرة من أفق بعيد يعلوها حدة صـوت بوق القطار القادم من بلدة مجاورة ، معلناً بذلك أيـداناً بتوقفـه لساعة يستأنف بعدها رحلته الشاقة الطويلة، ترجّل بعـضٌ مـن ركابه، لكن لم يكن هومن بين ذلك البعض، همّ القطار بإسـتئناف

رحلته، ورحلت معه عيناها الشاخصتين إلى أقصى مدى حتى توارى عن ناظريها، عندها أيقنت أن قدومه فصلاً آخر من فصول أحلامها، تغرق الفتاة في تفكير عميق كأنها أمام محراب الخشوع، يقطع عمق تفكيرها صوت جرس معلق علي مقود دراجة هوائية قديمة يركبها ساعي البريد، كثيرا ما كانت الفتاة تأنس لهذا الرنين، فلعلّ مجيئه يسقي شجرة الأمل فتحيا من جديد، ملّت الانتظار وملّها، فلم يعد هذا الرجل يطل على ذلك الحي العتيق كعادته، لقد قدم اليوم، ترجّل من فوق دراجته، تتدلى من على كتفه حقيبة جلدية تآكلت زواياها بفعل الزمن وشمس الظهيرة حتى صارت تلك الحقيبة أشبه بجبين صاحبها الذي نقش عليه الزمن تجاعيد تصارع قوة الحياة، لم يكد يضغط على جرس منزل الفتاة حتى همّت بفتح الباب بسرعة، سبقته بسؤاله قبل أن تحييه هل أحضرت خطابا من خارج البلدة أيها العم الطيّب ؟ لم يتردد الرجل في الإجابة قبل أن تنتهي سؤالها قائلا بهدوء تام: نعم ..نعم، هذا لك أيتها الحسناء خيراً إن شاء الله، تسلّمت الفتاة الخطاب ، ولم تنتظر حتى تدخل غرفتها ، مزقت أحد جوانب المظروف البني اللون، ترتعش يديها حتى كادت أن تأتي على ما بداخله. جذبت إليها الخطاب جذبا، وأنبرت تقرأه، تكرر ما قرأت، لم تكمل قراءة ما كُتب، تثاقلت خطواتها، صارت ثقيلة بالكاد تجرها جرّا،

لم تعد قدماها تحمل جسدها، أطبقت بكفيها على الخطاب، صارت تتمتم بكلمات باهتة متقطعة غير مفهومة، تلعن ساعة مجيء ذلك الرجل إلى حيّها، لقد حمل لها سوء طالعها، تندب الفتاة حظها العاثر، أجهشت بالبكاء وهي مصلوبة على سريرها الوثير الرابض في زاوية صامتة من زوايا حجرتها، استفاقت على رجع صدى صوتها وهمسها الحزين ووشوشاتها التي تلف المكان ، صاحت بأعلى صوتها ، كم هو غائر جرحي ، إنه شديد الإيلام، عاودها الحنين إلى حيث شباكها الطويل يرحل بها إلى أفق بعيد، إلى مرافئ النسيان، إلى ومضة حب جديد يسعف شتات ليلها اليتيم برغم نزف صار كالنشيد، لا أضنه سوف يعود، لقد تدثر بعباءة الجحود، لكن لن يرحل معه قلمها الوئيد، لملمت الفتاة عقد مشاعرها المنفرطة وقالت: لقد تبعثرت مفردات حروفي فما جدوى انتظاري بعد أن انتحر قدري على مقصلة سلواني، واستطردت قائلة: سوف أكتب ساعات ترقبي وانتظاري أنشودة على أسوار وبوابات غدي الآتي وملحمة تنذر بفجر باسم قد يكون آتٍ... آتٍ ضمت لميس قطتها إلي صدرها وتبسمت، أوصدت شباكها وأسدلت الستار.

زوايا الصمت

الشارع الطويل الكئيب، خال من المـــارة تمامـــاً، الظـــلام الدامس الموحش يلفه بعباءته الباردة القاتمة، بينما جــثم ســـكون رهيب على ذلك الزقاق المبلل بحبات الندى التي استقرت علـــى رؤوس العشب الرمادي الموشح بالصفار الذي نما بين فواصـــل الحجارة المربعة المرصوصة منذ قديم الزمان كأنها لوحة فسيفساء إغريقية، ليل ذلك الحي يكاد ينجلي، بينما تتسلل بين ثناياه أنات لعجوز تنازع المرض، تشكو رب العالمين بدعاء في جوف الليل، بعضاً من جدران البيوت تآكلت بفعل الزمن وعواملـــه، اتخـــذت بعض الطيور ملاذاً لها في غائر تلك الحفر، يلوح في الأفق البعيد ضوء سراج باهت بالكاد يمكنه اختراق العتمـــة الرابضـــة علـــى محيط ذلك الحي الذي يغرق في نوم هادئ طويل، لايعكر صـــفو هدوءه سوى أصوات الحيوانات الضالة التي اعتادت على الشجار ليلا، ولا تأبه للمارة العائدون لتوهم من صـــلاة الفجـــر والـــذين يحاولون عبثا ابعادها عن سكون المكان، بيد أنها تتوقف هنيهات، وتعاود متحمسة لشجارها الذي يتغير فجأة إلى استعراض لمهارات وألعاب حركية، يحدث ضجيجا يفزع بعض الصغار النيام، عثمان ذلك الشيخ الطاعن في السن يبدو أنه قد تجاوز قبل اسبوعين عقده الثامن، إنه أكثر السكان معرفة بـــذلك الشـــارع الطويـــل الـــذي

اصطفت على قارعتيه بيوتٌ مرصوصة تكاد تشـبه مـن حيـث الشكل بعضها البعض الأخر، إلا أنها اتحدت في أسلوب البنـاء ومواده التي تكون الحجارة والطين والتبن أساساً له، بينما جلبت الحجارة الصلدة من جبلٍ يجاور ذلك الحي، وأمّا جذوع النخيـل وتبن البحر أو القش فهي أساسٌ لا يمكن الاسـتغناء عنهـا عنـد وضع أسقف تلك البيوت، صبيان وشباب الشارع تربطهم صلات وثيقة وحميمة بالعم عثمان الذي اعتاد أن يتولى مهمـة إيقـاظ الصائمين في شهر رمضان، فهو المسحراتي الذي يألفـه النـاس ويحبونه، ينتظر الصبيان بفارغ الصبر قدوم الشهر الفضيل، لكي يخرج العم عثمان إلى الشارع، ويبدأ مشواره ككل ليلة رمضـانية قبل حلول الفجر وهو على هدا الحال لاينقطع عن قوله بصـوت متقطع : ((اصح يانائم وحد الدائم))، يصاحب ذلك نقر جميـل على طبله الكبير الذي علقه بعناية على كتفـه الأيمـن، بحمالـةٍ صنعت يدوياً من الجلد، تغمر سكان الشـارع سـعادة غـامرة، وينتشون أيما انتشاء من أسلوب العم عثمان المسحراتي، وطريقته في الإنشاد والأداء والتي لم ولن تتغير أبدا، فقد ارتبط بهذا الشهر الكريم أيما ارتباط، العم عثمان شاهد عيان على عصر هذا الحي وشارعه الطويل وما تخلله من أحداث عظيمة متباينة مفرحة تارة ومحزنة تارة أخرى، وبرغم تدهور حالة العم عثمان الصحية، إلا

أنه لايزال يتذكر كافة الأحداث الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية، فهي بين ناظريه لا تنقطع، وما ان يبدأ في سرد بعضاً من تفاصيلها، فكأنك به يعلق على شريط تاريخي وثائقي، انه رمز للمكان وقيمة اجتماعية عظيمة، بالرغم من طعنه في السن وعيشه مع وحدته القاتلة بين زوايا بيته التي يلفها الصمت، فهو يرشد الآخرين ويسدى إليهم بنصائحه النادرة وعظاته الخلّاقة، وبهذا يبقى في نظرهم جميعاً أيقونة تزدهر وتزهو.

عند المساء وفي عشيات الصيف البليلة وعبر حلقة مؤانسة اجتماعية يجلس بعض مرتادي مقهى الحاج مصباح وكلهم آذان مصغية، حين يسترسل العم عثمان في سرد مواقفه وتجاربه وذكرياته بأسلوبه الذي يأسر القلوب، فهو يمزج ذلك ببعض الاِبتسامات التي ترسم على شفتيه باهتة هزيلة، تكشف عن أسنانه الصفراء بفعل لفافات السيجار! التي يسحبها بأصابعه النحيلة المرتعشة من علبة حديدية صغيرة، داهم جنباتها شيء من الصدأ، وكثيراً ما يجد عناءً عند إشعاله النار من أعواد الثقاب، فقد دأب منذ شبابه على تعاطيها بشراهة ونهم، لا يمنعه عنها إلاّ موجة من سعال حاد تصدر عن صدره المضطرب، ناهيك عن أنها قد حرّقت رؤوس أصابع يده اليسرى فصيرتها مصفرة أيضا !.

حال غدوه ورواحه لا تسمع إلا خطواته الثقيلة المترنحة وهو يجر نعليه جرّا على سطح الحجارة الصّماء، يتابع بعينين غائرتين كل تفاصيل الشارع الطويل الذي لا يخلو شبر فيه إلّا قد نحت عليه نقوشاً بديعة من ألوان الذكريات مذ ترعرع بين نواصيه، فكل الخواطر هنا رسمت، والذكريات كلّها هنا وسّدت، لم يبرح الأسى والحزن نفسه منذ فقد رفيقة عمره قبل عشرين عاما إثر مرض عضال لم يمهلها طويلا، لقد عاشا أحلى أيام حياتهما، إذ تقاسما معا حلو الحياة ومرها، ومتسعها وضنكها، حفلا معا بالسعادة، وواجها بقوة فصول الحزن والألم، لم ينغص عليهما سعادتهما أحد، فهما عنوان الإخلاص وديوان الوفاء، وبرغم مناشدة الجيران وأهل الحي له بالزواج من امرأة ترعى شؤونه، وتشاركه ما تبقى له من سنيٍّ عمره، إلا أنه دائم الرفض جملة وتفصيلا، إذ فضل العيش على ذكرى زوجته التي أنجبت له ابنه الوحيد ((حمّاد)) الذي ضرب في الأرض سعيا وراء طلب العلم نزولا عند رغبة والده وإلحاحه الدائم بالسفر للحصول على أعلى الشهادات.

تشرق الشمس وتغرب ولا ينسيه ذكرى زوجته إلا قيامه للصلاة بالجامع الذي لايبعد عن بيته سوى خطوات قليلة، لقد كان وما زال يدعو لها عقب كل صلاة بالرحمة والمغفرة، أشياؤها

توقظ ذاكرته الملآى باللحظات المفعمة بالرضا، بيد أن زوايا بيته البسيط تبعث على الكآبة والحزن المرير .

عشق العم عثمان المكان واستأنس لضجر الزمـان، ولـم يغادر وفاءه مهما كان، ينفث همومه كل صباح حينما يذهب إلـى شاطئ البحر كعادته عقب فجر كل يوم، يمارس هوايته المحببـة لنفسه، إنها صيد السمك، ولا يعود إلا عندما تبلغ الشـمس كبـد السماء، وكثيرا ما كان يعود وقد جلبت صنارته ما يسـد رمقـه، فيعود وقد امتلأت نفسه سرورا وغبطة، وهدأت سـريرته بعـد سماع تناغم الأمواج مع أصوات طيور النورس البحرية، ملحمـة كأنها معزوفة سيمفونية جلبت القناعة والرضا وغاية أحلامه تذكار الوفاء.

داهمت الوحدة عمنا عثمان، وأطبقت بجناحيها على أوقات الفراغ الطويلة التي تؤرقه وتضجره، لقد فات الأوان للبحث عـن شريكة حياة جديدة.

تصل الرسائل متواترة من ابنه حمّاد كل شهر مـن وراء البحار، ومحطتها الأخيرة المقهى العتيـق الـذي يملكـه الحـاج مصباح، الذي بدوره يعطيها إلى أحد الصبيان ليسلمها إلى العـم عثمان، يطلق الصبي ساقيه النحيفتين إلى الريح باتجاه بيت العـم

عثمان، علّه يحظى ببعض البشارة وعلّها تكون قطعاً من حلـــوى الحليب جزاء صنيعه هذا.

يطرق الصبي باب البيت بقوة وينادي بأعلى صوته الناعم قائلا: عمـــــــــي عثمان، افتح الباب، أحضرت لك رسالة، إنها لك، ينهض العجوز من مرقده متثاقلا ويتمتم: أنا قادم، يهم بفـــتح الباب الثقيل، يجد عناء في ذلك، بسبب مفصلاته البدائية الصـــدئة والتي تنوء من جراء وزن الخشب الذي صنع منه، فهي لم تعـــد لينة سهلة كما قبل، يساعده الصبي، يفتح العجوز الباب، ولا يخفي فرحته برؤية الرسالة في يد الصبي، لايتردد مرتبكا، هيا اقرأهـــا لي، سوف أعطيك الحلوى التي تحب بابني.

ودونما استئذان يدخل الصبي إلى سقيفة البيت، يسند ظهره إلى حائط قد نخرته الرطوبة، التي أسقطت عنـــه ذلـــك الطـــلاء الجيري الأبيض، وبعض من الرمل الـــذي تكـــدس علـــى أرض السقيفة، ويبدو من ذلك أن يد الصيانة لم تسعف هذا البيت العتيق، ولم تزره منذ أمد بعيد!.

يقرأ الصبي الرسالة بصعوبة، ولا يكاد يسمع العم عثمان مايقول الصبي، العم عثمان لا يخفي ضجره من الصـــبي قـــائلا: ارفع صوتك، أعد ما قرأت، لم أفهمك، يكرر الصبي ما قرأ مرات عديدة، عندها يفهم الشيخ مضمون رسالة ابنه حماد، الذي يحثـــه

فيه كعادته على الزواج، يقف بصعوبة، تدمع عيناه ويردد: سامحك الله بابني، بعد هذا العمر، لا .... لا .... ليس بمقدوري فعل ذلك، أنا على عتبة دنياي لأستقبل وجه الله، من تلك التي ستوافق على الارتباط بي ؟ إنها خطوة غير رشيدة وقرار غير صائب، وفي ذهول يتدخل الصبي، ماذا قلت يا عمي عثمان؟ لا ..لا.. لم أقل شيء، أشكرك هذه الحلوى لك، خذها وأنصرف بارك الله فيك يا بني وبارك فيمن علّمك .

يعترف العم عثمان بأنه قد شق على نفسه وظلمها، بعدم قبول نصائح الجيران وسكان الحي بالزواج بعد رحيل زوجته عن حياته، وها هو اليوم يجني الوحدة والكآبة، يفترش الحسرة ويلتحف الندم.

عرف أن الأوان قد فات، وتلك الغاية قد عفا عليها الزمن، وما بقي له غير اجترار الذكريات والعيش بين زوايا الصمت، يسامر غربته ويلعن لفافته.

لملمت السنون ما تبقى من عمره، فرسمت على جبينه الأسمر تجاعيد غير منتظمة، قوس الدهر ظهر العجوز، لم يعد يمارس بعضا من طقوس يومه، احتل له زاوية مهملة في بيته، وركن إليها، يداعب حبات مسبحته، يجتر أوهامه، يلعن أحزانه يستغفر الله .

وفي ضحى أحد الأيام أفلت شمس العم عثمان وغاب عـن شارعه الطويل، رحل عمنا عن الوجود، ودّع الحياة، وحزن جميع من بالحي على فقدانهم الرمز والقيمة، كان مصابهم جلـلا، فقـد أقاموا له جنازة تليق بمقامه الطيب، وسمعته الحميدة، زرع فـي نفوسهم الحب والخير، أمرهم بالمعروف ونهاهم عـن المنكـر، وبذلك حصد من حياته التقدير والاحترام، وفي مماتـه الـدعوات الصالحة، وذكره بما تحب نفسه و ترضاه .

دمـــــوع القبـلي

ما أن تفتقت أشعة الشمس في صباح يوم صائف وانتشرت فوق القرية التي تحتضن الريح، حتى تبـــددت أكـــوام الضـــباب المتلاصقة على سمائها، ولأنها تربض في بطـــن الـــوادي فـــلا غرابة في أن تسكنها رمضاء الصيف، ويلفها زمهريـــر الشـــتاء، الناس في هذه القرية ليسوا هم من اختاروا المكان، ولكن القـــدر ساقهم إليه، فقد إعتادوه وألفوه، ولا يرضوا بديلاً عنه، لا شـــيء يثير الانتباه سوى بساطة المكان، عيون الأطفال غير آبهـــة بمـــا يدور في جنبات الخيام التي تكاد تقتلع، فهي تقاوم كـــل غـــزوات الريح معتمدة في ذلك على أوتاد شدت إليها بإحكام، عيون النساء تتسع لكل شيء، فهي عربية لمّاحة، تحدق في الغريب القادم للتو من مكان لا تعرفه، قبل أن تسقط الشمس لمغربها، لا تسمع سوى أصوات مختلفة متناغمة أحياناً للطيور المستسلمة لأوكارها بعد أن غدت بطاناً، أو بالكاد تسمع صوت امرأة تدعو ابنهـــا الصـــغير للعودة سريعاً إلى الخيمة، فهي الملاذ الأخير الذي يأوي الجميـــع، لا يفصل الصبيان عن البنات والأبويين سوى ستائر مـــن قمـــاش متعدد الألوان ربطت جوانبه إلى أعلى الخيمة بطريقـــة عبثيـــة، ينحدر الأطفال إلى مرقدهم بعد أن تناولوا عشاء دسماً، فيه كثيـــر من الزبد وخبز الشعير كانت قد أعدته الأم قبل وقت قصير أمـــا

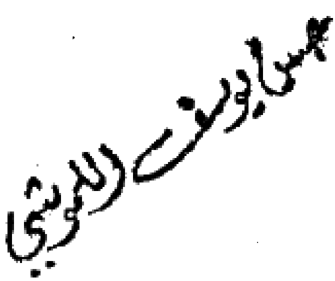
بقية أفراد الأسرة فهم يتسامرون كعــادتهم، يتجــاذبون أطــراف الحديث الذي يكاد أحياناً لا يكتمل ولا يصل إلى مبتغاه، وأحيانــاً أخرى يتوقف الجميع عن الكلام، لا يسمع إلا رشفات الشاي الذي فاحت رائحته وملأت المكان، محدقين في ضوء ســراج باهــت تعبث به الريح القادم من كل الاتجاهات، ماهي إلا لحظات حتــى تعبأ الكاسات الصغيرة من الشاي مرة أخرى فهي الثانية وتــوزع بدءاً من الشيخ مروراً بالأصغر فالأصغر وتأخذ المرأة نصــيبها آخراً، يتخلل شراب الشاي حديثاً مطولاً عن موسم الحصاد فهــو على الأبواب، متداخلاً الأب بحماسة لم يخفِ خلالها تخوفه مــن الأمطار التي تتساقط من حين إلى أخر، حينها تتدخل الأم محاولة طمأنة الزوج وإبعاد مخاوفه قائلة: إنها دموع القبلي يــا رجــل، ليست ثمة أمطار، فنحن في عز الصيف، لا تقلق، وبــدت علــى وجهها ابتسامة تحاول من خلالها زرع الطمأنينة في نفس زوجها، ومع ذلك لا يهتم الصبيان بما يدور من حديث داخل الخيمة، قهقه الزوج وهز رأسه يمنة ويسرة قائلاً: دموع القبلــي ينتظــر الأب مشاركة الأبناء في الحديث لمعرفة رأيهم في موسم الحصاد لكــن عبثاً فهم في واد أخر، ويعرف الأب أن ما يقلقهم هو تجاهله الدائم لرغبة الأم الملحة في زواج أبنها الأكبر (سالم) من إحدى قريباته التي تكبره بثلاثة سنين فهي أرملة أخيه التي كثيراً ما ســعت الأم

لإقناع ابنها (سالم) من زواجه من (قمرة) فكثيراً ما كانت تحبهـــا، لأنها كانت ذراعها الطولى التي تساعدها فـــي أعمـــال الخيمـــة والحقل، تجدد الأم طلبها من زوجها وقتما تنفرد به وتخلو إليـــه، لكنه دائماً لها بالمرصاد رافضاً طلبها بحجة موسم الحصاد وعدم اكثرات الأبناء بطلباته، ومع رغبة الأب الملحة بالحديث عن فائدة الحصاد وأهميته، يتمتم معه بعض الساهرين من الأبنـــاء بجمـــل وكلمات غير مفهومة، وقد أخذ مـــنهم الســـهر مأخـــذاً، بعضـــهم يتثاءب، يطبق النعاس على جفونهم، ويستسلم الآخر للنوم، يصـــرّ الأب على تناول كأساً ثالثة من الشاي الذي أصبح بـــارداً بفعـــل خمود الجمرات أسفل البراد، ومع تململ الأم وخوفها من تكـــرار الحديث عن زواج إبنها سالم، تدرك أن الليل بات فـــي نصـــفه، فتعدل عن ذلك وتخلد إلى نوم عميق، قبل بزوغ الفجـــر، تتقاســـم الديكة الصياح وتملأ أجواء القرية بما أتيح لها من أصوات تمتزج بنباح الكلاب التي لم تنم بعد، وفي غضون ذلك تصحو الأم مـــن سباتها لتوقظ زوجها الشيخ لأداء الصلاة، والقيام ببعض المهـــام اليومية المعتادة، وكعادته يبدو نشطاً مفعمـــاً بالحيويـــة المفتعلـــة أحياناً، فهو على أعتاب العقد الثامن من عمره، يجلس الشيخ فـــي سجوده الأخير من الصلاة وما أن فرغ منها حتى بادرته الزوجـــة بتحية صباحية لم يعهدها من قبل، أتبعتها بمعرفة رأيه فـــي زواج

إبنه سالم قبل أن يهل هلال شهر رجب محاولـــة طمأنتـــه عـــن الحصاد فهي قد اتفقت منفردة مع أولادها لإنجاز جني المحصول في زمن قياسي، ارتسمت على محيا الشيخ علامات الرضا، لكنه لم ينبت ببنت شفه، فهو قليل الكلام كتوم صبور، وما إن وصـــلت الشمس إلى كبد السماء حتى عمد الجميع إلى قيلولة هانئة بعـــد أن اجتمعوا على غذائهم كعادتهم حتى أعلن الخبر بموافقة الأب على زواج ابنه الأكبر سالم من قمرة أرملة أخيه، وحدد الأسبوع التالي موعداً للذهاب إلى أهل العروس لإتمام الاتفـــاق علـــى تفاصـــيل العرس، علت الزغاريد وملأت أركان الخيمة، وما هي إلا هنيهات حتى أقبلن نسوة القرية فرادى وجماعـــات، بعضـــهن يتســـاءلن وأخريات يباركن، تحفهن الفرحة، سرعان ما أنتشر الخبر الســـار وأنتقل بين خيام القرية المتناثرة والمتلاصقة، وما أن أكتمل بـــدر شهر رجب حتى بدأت مراسم العرس المتنوعة والتي دامت سبعة أيام، وهنا تتجلى أجمل لوحة فنية يشارك في رسمها كـــل أهـــل القرية، وعلى غير عادته باغث الزوج العجوز زوجته بسؤاله ما هذه الدموع التي في عينيك؟ أتراها دموع الفرح أم هـــي دمـــوع القبلي يا زوجتي؟! ضحكت الطفلة (جود) وتبسمت من قول أبيها سائلة أمها ماهي دموع القبلي يا أمي؟ فأجابت الأم أكنت تسترقين السمع من وراء الستار؟ ولم تعر الأم اهتماماً لإبنتها ولا لسؤالها،

فهي لا تعرف لها رداً ولا جواباً!! لم تخـــف الزوجـــة دموعهـــا المنحدرة على خديها فترسم خيوطاً لامعة على خديها السمراوين، تكشف عن ابتسامة باهتة على شفتيها، تشكر الأم الله ومعها الزوج على أن عادت أرملة أبنهما عروساً إلى كنف الأسرة من جديـــد، وما دموعها إلا ما تذكرته حين وفاة ابنها المفاجئ والتي كانت ولا زالت تحبه حباً جما، لم تسعفها كلماتها التي تجمدت في حلقها لكي تبارك لزوجها فرحتها بزواج إبنهما سالم.

عاشت الأسرة في وئام منقطع النظيـــر، وعقـــب العـــرس مباشرة التف الجميع مع أبيهم في الحقل مرددين أغاني الحصـــاد فرحين بما أتاهم الله من خير وفير وأنعمهم برضا الوالدين.

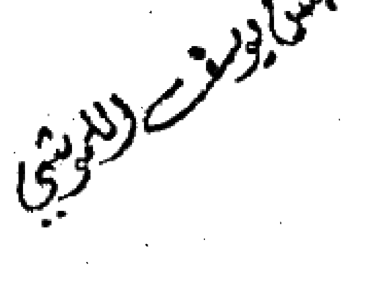


صهيل البراءة

على أحد جانبي الطريق الترابي وسط مزرعة لأحد الإقطاعيين يحضن الطفل نادر صدر أمه متشبثاً بثيابها مخبئاً وجهه عن الغرباء، فمنذ أن فقد والده قبل ثلاثة أشهر لم تزره الفرحة قط، ولم ترسم الابتسامة على شفتيه، ما أن يقع بصرك على وجهه البريء الناعم حتى تشدك صفحة الأحزان المنقوشة على محياه، ترغمك مشاعرك على التطفل لمعرفة ماذا حلّ بهذا الطفل وأمه التي ما كانت لتنهض حتى تكبو، وما استقامت خطواتها حتى تعثرت مرات ومرات، تصارع الأيام وتكافح هموم الحياة وشقوتها، فبعد أن رحل رفيقها عن الدنيا، باتت تواجه مصاعب العيش لوحدها، فلم تعد تسكن البيت الذي يقيها وابنها الصغير رمضاء الصيف ويدفع عنها زمهرير الشتاء، وما زاد من معاناتها ابنها نادر الذي لم يتجاوز السادسة من عمره، لم تتوقع المرأة أن يحضر إليها يوما ذلك الإقطاعي جالساً على كرسي عربته التي يجرها حصانان جموحان ويطلب منها بازدراء أن تترك البيت وتغادره وقد أمهلها يومان، وكان زوجها قد استأجره من الإقطاعي قبل ثلاثة عقود، حيث أمضى زهرة شبابه في خدمة مزرعته حتى باتت تنتج كل أنواع الحمضيات لتصدرها خارج البلدة، لم تصدق المرأة ما سمعت وكانت صدمة بالغة عرفت في

دموعها، ينظر إليها ابنها الوحيد معلقاً عيناه في وجه أمه وعيناها الباكيتان يتتبع دموعها التي تجمدت على خديها، يمد الطفل يده ليمسح بأصابعه آثار الدموع مندهشاً مستغرباً، تشبث الطفل برقبة أمه ويحضنها بشدة متأثراً ببكاء أمه الذي لم ينقطع محاولة أن تهدئ من روع ابنها الحائر، قبل شروق شمس اليوم التالي، وقبل نهاية المهلة التي قطعها الإقطاعي المتصلب صاحب القلب الذي لا يعرف للرحمة طريقاً ولا للشفقة متسعاً، غادرت البيت ولم تحمل معها إلاّ الشيء اليسير من حاجياتها وتركت كل دفاتر ذكرياتها الجميلة وأيامها السعيدة مع زوجها، سارت إلى حيث لا تعرف لها اتجاهاً ولا عنواناً وصغيرها يئن من المسير، تحمله أحياناً وتنزله أحياناً أخرى، تتزاحم الأسئلة في نفس المرأة وكذلك الطفل الصغير، ما عساها فاعلة وإلى أين المصير؟ يتساءل الطفل بصوت متقطع إلى أين نحن ذاهبان يا أمي؟ لماذا تركنا بيتنا وغرفتي ولعبي وأصدقائي؟ حطت بها أقدار الله إلى خرائب في أقصا المدينة فلا حياة هنا ولا زرع، لجأت إلى إحدى تلك الخرائب ولم يكن لهذا المسكن الخرب سقف وكل ما كان يحويه حوائط مهترية وأبواب متهالكة، افترشت الأم وطفلها الأرض والتحفا السماء وغرقا في نوم عميق لم يوقظهما إلاّ صوت الرعد وقطرات من مطر صار شديداً حتى غرق المكان بالماء وما كان

من الأم إلاّ أن خلعت الباب وغطت به طفلها لتحميه من الأمطار الغزيرة وكان قد استيقظ هو الآخر ضاحكاً مبتسماً متسائلاً ما هذا يا أمي؟ خلعت الباب لتقيني المطر وعانقها عناقاً حاراً هامساً فـــي أذنها بالله عليك يا أمي أخبريني كيف يصنع الأطفال من ليس في بيوتهم أبواب؟ كيف يختبئون عن المطر لم تجد الأم إجابة لسؤال صغيرها تجمدت في حلقها كل الكلمات، لملمــت المــرأة نفســها محاولة إخفاء دهشتها من سؤال ابنها وتمتمت بكلمات قائلــة لـــه: سوف تكبر يا بني وتعمل بعرقك وجهدك وتصنع المستقبل بجهدك وتسترد حق والدك من ذلك الأقطاعي الأفاق وشتان بين حكمتــك وحرصك على الأطفال وانشغالك عليهم بسؤالك الكبير وبين طمع وجشع الفاسدين المستغلين.



ضفة الوجع الأخرى

انشقت شفتاها عن ابتسامة مريرة، وأشرقت على وجهها حكايات دفينة، لمعت عيناها بشعاع الحسرة والجراح، بيد أنها بدت كالفراشة بفستانها الكستنائي المنقط، وذراعها الغض يتأود تحت نور القمر الباهت، الذي ينبعث من حافة ذلك القرص الفضي اللامع، تشعر المرأة بأنها سوف تلامس ذلك الكوكب، لو اعتلت حافة شباك غرفتها، هكذا خُيِّل لها!! رفعت يداها إلى الفضاء الفسيح قائلة: لقد أعادني هذا القمر طفلة، ضحكت ضحكة عالية، في هذه الأثناء لم تعد تسمع ضحكاتها ولا حتى صراخها، سبحت بذاكرتها في خضم سيول الحوادث المؤثرة، وما تعانيه من قفر الحنين والعطش للدعة والسكون، فزوجها المسعور السمج إنه برم قاسي عليها، فظ الخلق شرس الطباع، تسبل جفونها سائحة في عوالم من الحيرة والضياع، تسمرت عند شباكها، تتكأ معاناتها وتنفث جراحاتها، اقتربت منها صغيرتها ممسكة بفستانها، وضعت الأم أصابعها الرقيقة المنفرجة بثبات على كتفها، كانت يداً حلوة بها نظارة وبها بهاء زهور الزنابق الندية.

أسدلت الستار، دلفت إلى فراشها، لم تبارحه حتى لطخت شمس الصباح الكون بألوان طفلة تعبث بما حولها، تطارد الظل تركل إبريق الماء بقدمها، إنها زاد أمها الروحي، والملاذ الآمن

بعد أن طلقها زوجها الذي لم يراع فيها إلاًّ ولا ذمـــة، تـــواترت سنوات عجاف، ظمئت للحنين حتى باتت تصرخ في وجه البراءة، بصوت مظلوم مقهور، كأنما يصعّد في السماء، تعتصـــر ســـحب الحياة حتى أحست بالجفاف كي تروي بقطراتـــه قفـــرة جوفهـــا وظمأها إليه، كلما سرى عناء النهار، تطرد مأساتها، لتلهـــو مـــع طفلتها التي أحبت، تجر رجليها بتخاذل إلى ناحية المطبخ، وبيـــد مرتعشة تحاول أن تشعل الموقد بأعواد ثقاب رطبة، فتشعل واحداً ما يلبث أن ينطفئ، تلعن الآخر، وهكذا حياتها ظلت تحصد أشواكاً كانت تعتقد أنها أزهاراً وسنابل، ومع كل هذا، تعلمت أن تصـــمد في وجه الريح، وتهرب مستسلمة إلى شاطئ طويل خال، يتوســـد الصمت الرهيب، يعلن الانفصال عن كون أدمته الشمس، تعود بعد أن يطبق عليها القلق على صغيرتها، تعود إلى بيتها مرهقة متعبة، تتجمد صوب شباك غرفتها، تعاود المناجأة، ترسل بصرها إلـــى أبعد مدى، في زقاق بحيها الناعس المعتم نهاراً، والذي بدأ يتململ تحت غطاء الليل الحالك، لا تدع اللحظة تفارقها، فالليل رجاؤهـــا ومكمن سعادتها، كم تكرة رائحة ذلك الزقاق البائس الخانق الـــذي بصق فيه كل البلهاء، وسارت عليه كل أقدام التعساء.

وفي الصباح تنزف الشمس خيوطاً لامعة، تحمـــل المـــرأة حقولا من المطر! تعطيها هدايا للأطفال الذين يرصدون الفرحـــة،

خلف عربة الحاج عمار الذي سيظل هكذا بديناً يتحرك بمشقة وتؤدة، يركض الأطفال وراء عربته المتهالكة يدفعونها دفعاً، وهو لا ينفك ينهرهم بغلظة ولا يخلو أحياناً من سباب.

انتفضت المرأة كالمذعورة حين شقّ ذوي الذكرى حبل خيالها، الذي رحل مع أيام عرسها، والتي لم تعد سوى ذاكرة مخصية على قارعة حياتها البائسة؛ لأنها كانت قد رسمت معه بقلبها دون عقلها طريق حياتها، على ورق ممزق طيرته رياح الحقيقة الهوجاء، لقد صرع حبها على مقصلة الشهوة الحقيرة، نهضت واجمة شاردة، فصمَّ أذنيها رنين ضحكات ساخرة، وسرت في جسدها المنهك قشعريرة حادة، وانسكبت في فمها المغلق مرارة قاسية، ذأبت على تسلق مواجعها، راكبةً حزنها، ممتطيةً صهوة عذابها، متشبثة بتلابيب الخواء العامر بالألم، تشعر المرأة بوخز في الذاكرة يسحق هواها، تظل تنبش رماد عاطفتها، تستلُّ خنجرها وتغرزه في خاصرة انتشائها، تشعر بقلق يشدها إلى ملل تلعن فيه ضيق الجدران وفهرس الأيام، تصلبت عروقها، بالكاد صارت تتنفس، حينها شعرت كأنما تهوي في وادٍ سحيق، أسرعت إلى صغيرتها مرتجفة، إنحنت وهي تجثو على ركبتيها، شدَّت إليها صغيرتها برقة وضمتها إلى صدرها، باتت تفكر بأن موعد الرحيل قد أزف، وأن الفراق قد دنا منها وقرب، وأن قبضة اليأس

لم ترحمها هذه المرة، سحائب الحزن والأسى تغمر أركان وزوايا البيت الكئيب، والذي لم تغزو أشعة الشمس أركانه، فصار رطباً خانقاً يبعث على الكآبة والضيق، حتى الطفلة الصغيرة لم ترحمها آفة القهر والملل، داهمتها الوحشة والوحدة، فغابت عن وجهها القمري البريء الابتسامة، آثرت الصغيرة أن تخفي رغبتها الجامحة في اللعب والمرح، بعد ما رأت من شأن أمها، وفصول الحزن التي لاحت على حقولها، والشمس التي أطلت باكية على سنابل وجداول أمها، تلهو الصغيرة بظفائرها الطويلة المهملة، تشرق ابتسامة فرحة على وجه الصغيرة، حينما نظرت في وجه أمها.

تلاعب الصغيرة أمها، تداعبها بكلمات متقطعة، كم أنتِ جميلة يا أمي، ليس ثمة حسناً يشبه حسنك، ولا جمالا يضاهي جمالك، حتى وأنتِ تبكين، ينحت الدمع على خديك أنهاراً فضية، أستحلفك يا أمي أن تبتسمي، وانبرت تمسح عن خديها دمعاً كالمطر!! وقفت المرأة متثاقلة منهزمة أمام صغيرتها، سارت إلى المرآة تتحسسها وتكشف عن جمال أودعه الله في وجهها، وهمست بأنات المستجير، لن أقف في محطات أحزاني بعد اليوم، لن أنكأ جراحاتي القديمة، سأهزم أوجاعي وأرثيها بأفراحي مع صغيرتي، لن أستذكره ولن أتذكر قسوة رجلٍ حطَّم كل مزارعي وحقولي،

ونثر الريح في بساتيني وأزهاري، لن أرحل إلى ضفاف الوجع الأخرى، لن أرحل... لقد زرعت صغيرتي بذرة الأمل وسقت شجرة الحياة والابتسامة، بعد أن وئدت في رحمها، وداعاً أيها الوجع.

الحريـــة

انشغل عمر ابن السابعة عشر ربيعاً بامتحانـــات الشـــهادة الثانوية العامة وهو في صراع وسباق مع الزمن، يسهر الليـــالي منكباً على كتبة ويغرق في مذكراته لا يجد مجالاً للراحة ولا مكاناً للهو بالرغم من يقينه التام بأنه سينجح في امتحاناته بتقـــدير عـــام ممتاز.

والدة عمر وزوجها يحفانه بالرعاية التامة ويغدقان عليـــه الحب، ولا يتأخرا في تلبية رغباته وطلباته منـــذ أيـــام طفولتـــه، لاسيما بعد أن بدأ يدرك الفراغ الذي تركه والده بعد وفاته.

شغل فن الرسم بال عمر وتفكيره منذ صغره فقد تميز في مدرسته وانفرد بإبداعاته وبدأ يطلق العنان لخياله الواســـع، وقـــد حظي بتشجيع معلميه ولقي منهم كل عون ومساعدة.

اشتركت مدرسته في معارض عديدة أقيمت بالمدينة خاصة برسوم الطفل، وكانت لوحاته تتربع على منصة التراتيـــب الأول، وفازت المدرسة بعدة كؤوس بفضل اللوحات الفنية لعمر.

لا يزال عمر زهرة يانعة في روض الشـــباب وابتســـامة لامعة في ثغر الآمال وفجراً مشرقاً في سماء الحياة، ترقـــب الأم بصبر وثقة كبيرين نتيجة امتحانات الشهادة الثانوية العامة، وفـــي الوقت نفسه كان عمر يدرك أن النجاح حليفه، ويدرك أيضاً ما هو

أعمق بكثير، حيث يفهم أن جميع أعماله من الرسم وآثاره غريبة ونادرة بين آثار بقية الناس، فهي تبهر العيون وتلهب الأبصار وتملأ القلوب هيبة وروعة، وأدرك عمر أن من كان كذلك عظم شأنه واشتدت ثقته بنفسه، وحسده الناس على عبقريته ونبوغه في فنه.

تنجلي الليالي وتدور الأيام ويكون الأول على مدرسته في القسم العلمي، وامتلأ بيت الأسرة بالمهنئين بنجاح عمر، وكان منهم الأقارب والأصدقاء، وعمت الفرحة أركان البيت المتواضع، ويسأل أصدقاء عمر صديقهم وماذا بعد؟ ويتلطف الآخر ويتدخل بقوله: لا. لا الدكتور عمر، أنت مجد وذكي، لن نرضى لعمر إلا أن يكون طبيباً ماهراً في مدينتنا، ويردد بعضهم: أحقاً يا عمر ستكون طبيباً في هذه المدينة؟ عندما تدخل زوج الأم وقد علته ابتسامة الرضا وقال: نعم. نعم سوف يلتحق عمر بكلية الطب، أنا قد رسمت له مستقبله وحددت له اتجاهه العلمي لأنني على يقين من مقدرة عمر العلمية واثق به، وبنبوغه نعم ... أنه الدكتور عمر.

لم يتأثر عمر بتلك المداخلات ولم يأبه لها، فهو يعلم ما تحويه نفسه من رغبة صادقة لا يجانبها الشك ولا يعتريها

الغموض، ويعلم المحتوى الذي يتضمنه ميوله المتأصل والكامن في قرارة نفسه.

أصر الحاضرون على أن يقول عمر وجهة نظره في الموضوع، وإرضاءً للفضوليين ومن باب الذكاء الاجتماعي الذي كان يتمتع به عمر فقد قال: نعم إن دروب العلم واتجاهاته تحتاج إلى شيء من التفكير والتمحيص، ولا جدوى مطلقاً من التسرع في الاختيار، فأنا كأي فرد من أفراد هذا المجتمع أحب أن أعيش المعترك الهائل في ميدان الحياة، وأصارع العيش وأغالبه، وأفكر وأتردد وأجرب وأختبر، وأقارن الأمور بأشباهها ونظائرها، واستنتج نتائج الأشياء من مقدماتها، وأعثر مرة وأنهض أخرى، وأخطئ حيناً وأصيب أحياناً أخرى، فمن لا يخطئ لا يصيب ومن لا يعثر لا ينهض، وأحب أن أخالط جميع الناس وأتذوق مرارة العيش وضنك الحياة وأشاهد بعيني بؤس البؤساء وأتلمس شقاء الأشقياء، ولا أجد منفذاً لذلك ولا يتأتى لي ما أتمنى إلا من خلال فرشاتي ولوحاتي التي أرى ضعفي من خلالها واستمد قوتي من قوة تعبيرها، وأنا لا أجد نفسي ولا ضعفي وقوتي في مجال الهندسة ومجال الطب، ولا أرى كياني إلا في مرآتي الصادقة عبر لوحاتي، حينها صفق أصدقاؤه وأعجبوا برؤيته العفوية النابعة من إحساس صادق ولم يخفوا دهشتهم من حديث صديقهم عمر الذي

أماط اللثام وكشف النقاب عن معالم مستقبله، وفي هـذه الأثنـاء نهض زوج أمه غير راضٍ على ما أفاض به عمر، فهو لا يـزال يراه طبيباً مشهوراً يشار له بالبنان.

لم تكن اتجاهات عمر وميوله تتوافق ورغبة ذاك الرجـل الذي يلح أشد الإلحاح على عمر ألا يفكر بغيـر الاتجـاه الـذي خططه له وحدد معالمه، وهو يعني بذلك الالتحاق بكلية الطـب، وبرغم أنه يعلم علم اليقين أن عمر سيكون له مستقبل مشرق فـي مجال الفنون التشكيلية لاسيما أنه قام بعدة معارض فنيـة لاقـت النجاح المأمول، وحظي عمر من خلالها باحترام وتقدير المهتمين بالفنون والفنانين.

وكان عمر مدركاً أيما إدراك أن رغبته المتأججة والصادقة والتي كانت تنبع من تراكمات ثقافية هائلة تشكلت في قالب فني لا يضاهيه أي اتجاه رسخها عمر باطلاعه العلمي الدائم والمسـتمر على كل المستجدات والتطورات في هذا العالم وما آل إليه، حسبه في ذلك أن يبني مجداً ويصنع النجاح في مضمار أحبه وعشقه منذ نعومة أظافره، إذ كان يأنس لمنظر وجمال القمر، فكان يناجيه في قراره نفسه ويقول له: أيها القمر المطل من علياء سـمائه أأنـت عروس حسناء تشرف من نافدة غرفتها، وهذه النجوم المبعثرة من حولك أهي قلائد من جمان، إنك أيها القمـر قـد أنـرت الأرض

وسهولها ووعرها ونجادها، فهل لك أن تشرق في نفسي فتنير ظلماتها وتبدد ما أظلها من سحب الهموم والأحزان، سوف أرسمك بفرشاتي، لا تغب عن سمائي الغائمة تمهل أيها الكوكب الساحر!

أخذ عمر يرسم ذاك المنظر الساحر للقمر وينفث همومه في ذاك المنظر، حزن عمر لتصلب رأي زوج أمه الذي كثيراً ما يحبه ويعطف عليه كل العطف، وسيسعد كثيراً حين يراه قد نزل عند رغبته والتحق بكلية الطب، عندها سيفخر به أيما افتخار، وسيعتز به الاعتزاز كله بين جلساته وأصدقائه الذي كثيراً ما يسألون عن أحوال عمر وعن آخر أعماله ونشاطه الفني، فهم يعرفون أن عمر رسام ينتظره مستقبل زاهر.

ساهر عمر القمر تلك الليلة حتى مل منه ومله، وضاق كل بصاحبه ذرعاً، لم تخالط جفنه سنة الكرى حتى خيل إليه أنه قد انتقل من عالم إلى عالم آخر، وهو يفكر ملياً كيف له أن يخرج من أزمته دون أن يغضب زوج أمة؟ وكيف له أن يحقق أمانيه وطموحاته؟ بعد ذلك شعر أنه يمشي في قفزة جرداء قد انبسطت رمالها متجمدة على سطحها، لم ير في بطحاتها ظلاً غير ظله المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطأت في تصويره، حيث أوسعته طولاً ورسمته ميلاً، وأنشأ يمشي لا يعرف له مذهباً ولا مضطرباً وظل على حالته هذه متردداً تارة ومتخذاً قراره تارة

أخرى، استمر على هذه الحالة حتى مساء اليوم الثاني حتى انحدرت الشمس إلى مستقرها وطار طائر الليل من مكمنه، وما أن نشر الظلام اجنحته السوداء في الأفق حتى وجد نفسه في صراع آخر مع نفسه التي ترشقه بسهام التساؤلات المحيرة والتي لا يجد لها إجابة، إنه أمام مفترق طرق، هل ينفذ رغبة زوج أمه والتي يحرص فيها الحرص كله على الاندفاع بسرعة دون تردد نحو مجال الطب البشري، وهي أمنية زوج أمه التي كثيراً ما تمناها، أو أن يسير في نهجه وميوله الفطري وما يستهويه من ذاك العشق اللامتناهي في الانتماء لأسرة الفنون الجميلة، والتي لا يرى ذاته إلا في عوالمها الواسعة، همه أن يبحر ويغوص في أبجدياتها وأسرارها ويسبر أغوارها ويحصد ما شاء له الله أن يحصد من نفائس الفنون بريشته الساحرة وأنامله التي لا تكل العطاء.

تنحاز الأم لرغبة أبنها الجامحة في مواصلة الدراسة الجامعية بكلية الفنون الجميلة وانحيازها كان موضوعياً بكل ما تعنيه الكلمة فهي على يقين أن ابنها عمر أسير للوحاته وريشته ومرسمه الذي ضاق بالأعمال التي تفوق كل واحدة الأخرى وهي واثقة أن ابنها حليفة النجاح في هذا المضمار وسيواصل دراسته الأكاديمية حتى يبلغ مراده.

دخلت الأم على ابنها في مرسمه ذات ليلة حاملة في يدها كالعادة كوبا من الشاي الذي كثيراً ما يحبه عمر، في هذه الأثناء كان الفنان عمر يضع أول خطوط له على لوحة جديدة، وضع لها موضوعاً في مخيلته عنوانه الوداع، ولم تكن الأم كعادتها تكثر من الأسئلة على ابنها الذي ينغمس في بناء موضوعه الجديد على هذه اللوحة، ولكنها لم تتعود أن ترى ابنها والحيرة والهموم باديتان على وجهه، لم تتردد الأم في سؤال ابنها: ما بك يا عمر؟ أراك على غير عادتك؟ هل تشكو من شيء؟ عمر: لا يا أمي، أنا بخير، فقالت الأم: أنت ابني وأنا أعرفك جيداً، لم تكن كذلك حين تبدأ رسم لوحاتك، ومع إلحاح الأم الشديد لتعرف سبب حيرة ابنها وهمه، قال عمر: لم أعهد يوماً أنني كنت قد سببت لك ولزوجك أية مشكلة ولم أضايقكما على الإطلاق، فالسعادة تغمرني لراحتكما، ولن أكون سبباً في إحراجكما، وسوف أنفذ رغبة زوجك وسألتحق بكلية الطب، ومن صباح يوم الغد سأكون هناك، فردت عليه الأم وقد ترقرقت عيناها بالدموع: لا لن أسمح لك بذلك أبداً، لن أسمح لك، إنها رغبتك يا عمر، وهي فوق كل اعتبار، أنت فنان موهوب بالفطرة لن أدعك تتخلى عن اهتماماتك الكبرى، سأكون عوناً لك وعينك التي لا تنام، ولا يحق لأحد منا أن صادر حريتك ويسلبك إرادتك، سيكون لك يا عمر مستقبل

زاهر ومشرّف، سوف يكون لبصماتك في الرسم وقع طيب الأثر، أنا متأكدة وواثقه من ذلك، أرجوك يا بني لا تخيب ظني ورجائي فيك، ولا تترك لرغبات وأهواء عمك أية فرصة لتنال من عزيمتك القوية الصادقة، بل تمسك بكل قوة بانتمائك لفنك النبيل الذي سوف يخدم قضايا مجتمعنا وأمتنا، إن رسالتك القادمة يا عمر لا تقل أهمية ولا شأناً عن رسالة الطبيب، فالرَّسام يلامس ويعايش هموم وأوجاع مجتمعه ويتابع عن كتب إرهاصات أمته ويحلل بموضوعية بالريشة والألوان ويترجمها إلى لوحات غاية في الصدق تخاطب عقول الناس وتشدهم إليها بكل قوة، فهي تعبير صادق ومحاكاة حضارية تقنع الناس عبر أساليب ومدارس على مختلف دروبها واتجاهاتها الفنية.

وقف عمر وفي يده ريشته ونظر إلى أمه نظرة الإعجاب والتفاؤل ودنا منها واستطردت تقول له: لقد صنع الإنسان لأخيه سلاسلاً وأغلالاً وسماها تارة ناموساً وأخرى قانوناً ليظلمه باسم العدل ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام، فويل له ما أكثر جهله وويح له ما أشد حمقه، وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من هذا العذاب أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه، ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته بل جنايته الكبرى

أنه أفسد عليه وجدانه فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ولا يذرف دمعة واحدة عليها.

تذكر يا عمر لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود لانتحر البلبل إذا جبسه الصياد في القفص، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها.

لا سبيل إلى السعادة في الحياة إذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً لا يسيطر على جسمه وعقله ووجدانه وفكره وميوله ورغباته مسيطر.

تذكر يا بني أن الحرية شمس يجب أن تشرف في كل نفس، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم وآخرها بظلمة القبر، قال عمر: أنا يا أمي معك في كل ما قلته، قالت له أمه: اسمعني جيداً يا بني أن الحرية هي الحياة ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه بحياة اللعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية، ليست الحرية صوتاً جديداً طارئاً غريباً وإنما هي فطرته التي فطر عليها منذ كان وحشاً يتسلق الصخور ويتعلق بأغصان الأشجار، فلتمارس بكل حرية دورك القادم في مجتمعك الذي وهبك كل الحرية في التعبير عن أبسط حقوقك، في العلم والمعرفة، وهي حريتك الذاتية التي تتلاءم

وتتوافق وإمكاناتك وقدراتك وحتى تطلعاتك وآمالـــك العريضــــة، وفي ذات اللحظة دخل زوج الأم ووقف متجهماً يسمع عبـــارات الأم لابنها، ومع أنها علمت بدخوله إلا أنها استطردت: أن الجهل غشاء سميك يغشي العقل، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشـــاء فتحرقه رويداً رويداً فلا يزال العقل يتألم لشدة حرارتهـــا مـــادام الغشاء بينه وبينها حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نوراً والألم لذة وسروراً، ثم قاطع الزوج زوجتـــه قـــائلاً: فيمـــا تتحاوران ومالي أراك متجهماً يا عمر؟ هل يزعجك شيء أم أنك مريض؟ لم أراك بمثل هذه الصورة من قبل، أخبرني ما خطبـــك؟ هنالك ذرف عمر دموعاً لا يذرفها إلا من قل نصيبه من الأصدقاء واقفر ربعه من الأوفياء، وأصبح غرضاً من أغراض الأيـــام، لا تخطوءه سهامها ولا تغبه آلامها. قال الزوج وقد بدت عليه الحيرة والاستغراب الواضحين ما الأمر يا امرأة تكلمي، مـــاذا حـــدث؟ فردت عليه زوجته قائلة: ليس من حقنا أيها الـــزوج العزيـــز أن نفتخر ونتباهى في مجتمعنا بعمر على حســـاب غاياتـــه وأهدافـــه وطموحاته، أنت تعلم أن ابني عمر لا يرضى عن مواصلة دراسته الجامعية بكلية الفنون بديلاً، وهي أمنيته منذ كان طفلاً في مرحلة التعليم الأولى، وقد نشأ وشب على حب وتذوق الفن وعلق عليـــه آمالاً كبيرة، وقد خطى خطواته الأولى على هذا الطريق، وأنـــت

تعرف كم حقق من النجاحات في معارضه التي أقامها، وكم لاقت من الإعجاب والاستحسان، وكنت بنفسك تشجعه على الاستمرار في الإبداع والتألق. أما وقد أصبح الآن شاباً يافعاً في طريقه إلى الدراسة الجامعية تود أن تغير توجهه وتنقله هذه النقلة؟ ... لا، إنني أتوسل إليك ألا تكون حجر عثرة في طريق ابني عمر، لا يستهويه ولا يحفل به، أرجوك أن تهتدي إلى الحقيقة وتترك حرية الاختيار العلمي له، ولا تجعله يتحسر ويعض على أنامله من الغيض، فهي فرصته التي يدرك فيها ذاته ويعبر فيها عن نفسه التواقة للخلق والعطاء، فدعه يأخذ لنفسه حفظها من العلم والأدب.

كان لخطاب الأم الإنساني وقع كبير في نفس زوجها، فهي بذلك قد عززت حقاً من حقوق الإنسان وهو المتمثل في صون حرية التعليم واختيار المجال الأنسب الذي يتوافق مع الميول والرغبات والطاقات، فها هو الزوج يفيق من غفوته ويصحوا من أسر فكرته التي كادت تدمر طموح الرسام عمر، ولكن بفضل جرأة الأم وصراحتها وحرصها على مستقبل ابنها تغيرت فكرة الزوج وعرف أن حرية التعليم هي جزء من حرية الإنسان الكاملة، وثمن عالياً موقف زوجته من ابنها الفنان الذي يصبوا لأن يكون له شأن في بحر الفنون الذي يأمل أن يسبر أغواره ويغطس في أعماقه باحثاً عن كل جديد.

شد الزوج على يدي عمر وضمه إلى صدره وبارك له في اختياره المناسب، فرحت الأم فرحاً لا تسعه الأرض ولا السماء بموقف زوجها الذي امتثل فيه لرغبتهما بعد سماعه لكلام الزوجة عن الحريات الشخصية، وتفهمه لرأيها الصريح في معرض حديثها لابنها عمر بضرورة الدفاع عن أبسط حقوقه في الحياة وأهليته بالمطالبة بحريته في المجال التعليمي الذي يتناسب مع رغبته وإرادته، ومن هنا تأكد للزوج بما لا يدع مجالاً للشك أن عمر وأمه يتفقان على التحاقه بكلية الفنون الجميلة التي دأب على الاستعداد للدراسة بها وتحقيق أفضل النتائج.

خلال أربعة أعوام من دراسة عمر بكلية الفنون الجميلة نحت فيها الصخر وكرس جهده ووقته لإبداعاته وابتكاراته، وأضنى سنوات دراسته في البحث والتدقيق، حاز على درجة البكالوريوس، ولم يكتف بما ناله بل واصل عمر دراسته لنيل درجة الماجستير في الفنون وكانت معارضه لا تتوقف وإبداعاته لا تنتهي.

عبقرية الصمت

غشّاه الذهول وحاصرته الحيرة، وفي وجوم تسمّر الراعي مصباح متقرفصاً رغم قامته الطويلة النحيلة وظهره المحدب، أضفت شمس حزيران ورمضاؤها على وجهه سواداً لامعاً، عقدت على جبينه تجاعيد غير منتظمة، يضع مرفقيه على ركبتيه المتصلبتين، بينما تتدلى أصابع يديه الطويلة المنتهية بأظافر خشنة متسخة إلى وجه الأرض، تظهر أصابع قدميه الغليظة من مقدمة نعليه البائدتين والمخاطة بخيوط متعددة الألوان والأشكال، غطت قبعته الصوفية كامل أذنيه وكذلك إحدى عينيه، كما تدلت عمامته البيضاء المائلة إلى الاصفرار من على كتفيه بعد أن لفّها على رقبته الطويلة النحيلة، يظهر شعر رأسه الكثيف الأشعث من بين الحواف السفلى لقبعته، ولأنه يبدو ملتصقاً ببعضه وملتوياً، فهذا لأنه لم يمسسه ماء منذ أسابيع، فهو أقرب من حيث الشكل إلى صعاليك العرب إبان الجاهلية، تارة يمدد عكازه الملتوي ويجذبه إليه تارة أخرى، وبحركة عصبية متتابعة يضرب الحصا المتراكم جرّاء سيول الخريف، تلوّن الحصا بلون الجمر المتقد أسفل إبريق الشاي، يراقب مصباح عن كثب قافلة النمل المتصلة والتي لم تركن إلى الراحة قط، فهي تتابع عملها ومهامها بحرفية ومهنية متقنة، وهي لاتزال كذلك حتى تنجز حفر مسكنها الشتوي، بعينين

شاخصتين جاحظتين يمعن النظر في نزاع قد يبدو بين نملتين فاتخذتا لهما جانباً عن مسارب العاملين، وتضل في تشابك بالأرجل، وتسقط أحداهما الأخرى بالقاضية وبحركة خاطفة سريعة، تجثم على الأرض بدون حراك، تظل ملتوية، وتقف منافستها على قدميها الخلفيتين متحدية شامخة، تمضي في طريقها وتتوقف فجأة وتنظر خلفاً وتعود مسرعة، تحاول سحب أختها المتهالكة، عبثاً تحاول ولم تجد إلى ذلك سبيلاً، وقفت برهة وانطلقت تطلب المساعدة من بعض عناصر الجيش الذي ينشغل بنقل حبات التراب الناعمة حيث يتم حفر المسكن الشتوي تنادت نملات أخريات وقمن بحمل المجني عليها إلى حيث علاجها ورعايتها، تمنى مصباح وقتها أنه يملك معجزة سليمان ليفهم فحوى الحديث الذي دأبت عليه كلتا النملتين وما سبب ذلك الشجار، فكّر ودبّر وحلل، ولم يخلص إلى نتيجة، فهم أنه من الصعوبة بمكان إدراك كنهها وتفسير مدلولاتها، أيقن أنه يحتاج إلى معجزة نبي ونظريات فلاسفة حكماء من عصور غابرة.

لم يعر ذلك البدوي اهتماماً لغنمه التي نفشت إلى حقل جاره، فقد عاثت فيه فساداً، يتجاهل الرجل نداءات وصيحات زوجه المتكررة وطلبها سرعة إحضار القطيع، لم يكد يسمع ما تقول بل بدأ يضجر ويسأم من سماع نبراتها الحادة المزعجة

والمتكررة، لم يبال لما تقول، وما كان يمنعه من نهرها تلك الحالة التي انغمس في متابعتها، فهي قافلة النمل التي لا ينقطع ذبيبها بين جيئة وذهاباً، ناموس غريب وسرّ عجيب، تكرر المرأة نـداءاتها الصاخبة لزوجها وتكرر الطلب، يلتفت إليها مضّجراً من صـوتها الذي يحدث صدأ بعيد في أرجاء المكان المحاط بجبال صـخرية تربض على ضفاف الوادي، صمت المكان لا يفسده سوى رنـين غطاء الإبريق الذي يتراقص بفعل غليان الشاي الذي بداخله، ذلك الغطاء الذي ثبت بسلك نحاسي وعلى نحو غير منـتظم بعـد أن عبثت به نيران الحطب الملونة بالزرقة القاتمة والتي تتقـد أسفل الإبريق منذ ساعات الصباح الأولى، الرائحة المنبعثة جرّاء سقوط وتناثر قطرات الشاي على جمر الحطب والتي لا يميزها بعضـاً من أناس المدينة ممّن غزتهم آلة العصر، فتلك الرائحـة تـوقظ الشهية والرغبة في شرب كأس ساخنة من ذلـك الإبريـق، أدرك مصباح أن ما بداخل الإبريق قد تبخّر الكثير من محتواه وأصبحت رائحة الشاي تضفي على المكان شعوراً بالانتشـاء والاطمئنـان ورغبة في احتساء القليل منه قبل أن يضيف إليه قليلاً من المـاء، يسحب مصباح من كومة الجمر غصناً لم تأت عليه النار بأكملـه فيشعل من مقدمته لفافته التي دأب على أن يأنس إليها منذ عقـود مضت متجاهلاً مضارها.

شعر بأن عقله قد عجز على أن يستوعب ما يـدور مـن حراك في مسارب النمل ما بين حركات وأحاديث جانبية بين الفينة والأخرى، متسارعة ثارة ومتئدة متأنية ثارة أخرى، تراكمت عديد الأسئلة وتزاحمت في نفسه، يتساءل ما بال دينك النملتين في عناق وتشابك مستمر أحياناً، وتباعد وسباق أحياناً أخرى، هل تراهمـا تسائل أحداهما الأخرى عن سبب تقاعسـها فـي أداء واجباتهـا وإنجاز أعمالها أم تراها توشي أحداهما للأخرى عن قصة مفتعلة كما جرت عادة بعض بني البشر؟

أم هي تتحي باللائمة على الأخرى لافتعالها المـرض؟ أم هي تشكرها على جميل صنيعها فتحفزها وتدفعها للإبداع دفعـاً؟ وهذا مالا يفعله بعض بني البشر!! هذه التساؤلات وغيرها لم يجد لها إجابة البتة، يردد مصباح القروي في قرارة نفسه ... يا إلهـي ما هذا النظام البديع؟ وما كل هذا التفاني ونكران الذات في إنجاز العمل؟

تجثم الحيرة والدهشة على قلبه وعقله متسائلاً: ما بالي أنا الإنسان أفكر ولا أعمل، أتكاسل ولا أجتهد، يزفر بقـوة ويتبعهـا بأنات متحسرة!! وهو على هذه الحال حتى انتفض منزعجاً كأنما يتخطفه الطير وما هي إلا أصوات الطيور البرية المستسلمة إلـى أوكارها على قمم الأشجار وفي حفر وسط الكهوف وعلى رؤوس

الهضاب والجبال بعد أن غدت بطاناً، عمت فوضى الأصوات كل الأرجاء ولم يتعرف على مصدرها، فربما كانت لخفافيش تعلقت في صخور تلك الجبال وبوابات الكهوف المخيفة، وربما لبعض القوارض الجائعة، وقد يكون خشخشة المعطف الذي يرتديه الرجل فهو طويل بقدر أنه تلامس أطرافه الأرض.

لم يدعني لمجالسته وربما لم ينظر إليّ، ولم يهتم لتحيتي له حينما قاسمته سكون المكان، وما شدني للجلوس بجواره هو ذلك الانسجام والعلاقة بين مصباح البائس والديناميكية المتناغمة في عمل تشكيلات جيش النمل وغموضه المحيّر، والمثير هنا هو رغبة ذلك المتجمد متقرفصاً لساعات، ومحاولته فك رموز وطلاسم تلك الحركات الإبداعية الصادرة عن مخلوق ضعيف، لم يفهم قط ما كان يدور بين فصائل ذلك الجيش العتيد، ولكنه لم يخف دهشته واستغرابه وحيرته مما رأى بأم عينيه.

وبإماءة من رأسه، أومأ إليّ بعكازه بأن أجلس إلى صخرة دون أن ينبث ببنت شفه!! الجبال السوداء من خلفنا غيبت عنّا شمس ذلك النهار، وأطبقت على المكان عتمة مخيفة خانقة، لم أعد أرى سوى عيناه الحائرتان.

مدّ يده اليمنى إلى مقبض أبريقه الذي يعتلي منصة من جمر يتقد، حرّق إبهامه وسبابته، لعن الإبريق والنار، أدار وجهه

إلى حيث مسرح الحكاية التي أسرت عقله وفكره، لم ير سوى آخر نملة تغادر موقع العمل وهي متعبة منهكة، تجر أرجلها جراً فهي بالكاد تسيطر على توازنها.

يحدث مصباح نفسه متعجباً: لقد علمتني قافلة النمل درساً ما كنت لأتعلمه، حكمة بالغة في النظام والإتقان، رفع إبريق الشاي إلى مستوى أعلى من رأسه، أغرق الكأس الصغيرة من الشاي الأحمر الذي صار لونه بنياً فاقعاً، يظهر ذلك اللون في الرغوة الذي أحدثها بفعل طريقة الصب المعروفة، أعطاني الكأس دون أن ينظر إليّ، شرب كأسه على ثلاث رشفات، قذف على الأرض بما تبقى في قعر الكأس فهو يكاد يلتصق به، دفع بأسفل عكازه ببعض التراب على ما تبقى من جمرات يكسوها الرماد، نهض مرتعشاً متخدراً فزعاً من فعل قطيعه الذي أفسد حقل الجار، عاد ومعه قطيعه إلى قريته يجر رجليه متثاقلاً، خلد إلى فراشه مضجعاً بين ناظريه ذلك المشهد الرائع فلم يبارح تفكيره ولا حتى خياله.

الهديـــــة

ذاكرة لم يخفها الزمن، ولم يمحها برغم تحـــديها لأهـــوال الطبيعة القاسية، إنه معلم قرية بنت اجبيل اللبنانية، ذلـــك الجســـر الحديدي التاريخي الموغل في القدم، والذي تسنده علـــى جانبيـــه دعامات خشبية هائلة، فهي من الضخامة ما أضفى عليهـــا هيبـــة وبهاء، وقد ثُبتت تلك الدعامات الخشبية بصواميل وبراغي أتـــى الزمن على اليسير منها، فهي من القوة والمتانة ما جعلها قـــادرة على الصمود في مواجهة أعتى موجات الجليد والرياح العاتية.

يتوسط هذا الرمز الهندسي القرية الجميلة، والتي ما زالت تشهد له بالمهابة والعظمة لما يقدمه لأهاليها وزوارها من خدمات؛ وعلاوة على أنه معبر هام، فهو رمزها التاريخي، وعلى ظهـــره كان يلتقي يوميا الصبيّان الصديقان أحمـــد وتـــوني، وهمـــا فـــي الخامسة عشرة من العمر فدائما ما يشدهما منظر طاحونة الهـــواء المعطلة، وأطفال القرية الذين يتعلقون بهـــا، ولا يقطـــع حـــديث الصديقين المستمر إلا خرير الماء المنهمر خلال القنـــاة المائيـــة أسفل الجسر.

بدأت صداقة أحمد وتوني منذ طفولتهما فقد ولدا في يـــوم واحد وتربيا وترعرعا في هذه القرية التي يفخران بالانتماء إليها، وقد جرت العادة أن يلتقيا كل مساء، ويقضيا معا أمسيات ســـعيدة

وسط مزارع القرية الوارفة الظلال، يطلقان العنان لبصرهما على امتداد الأفق، حيث السكون يملأ المكان والروائح المنبعثة من الجداول التي امتلأت بأشجار اللوز وكروم التين؛ فهي تبعث على الاسترخاء والرضا النفسي، فكل الرياض خضراء، وكل الجنان فيحاء وهما دائما عاكفان على هذا الحال، لا يفرق بينهما سوى ليل يرخي سدوله على قريتهما الهانئة التي يعيشان فيها عيش السعداء المترفين، والتي هي أيضا تستسلم لسيمفونية تعزفها عصافير وبلابل تهجع إلى أوكارها وأعشاشها التي وجدت لها حيزا فوق أشجار الأرز العالية.

في اليوم التالي كان لقاء الصديقين على غير العادة؛ لأنه كان مفعما بالحيوية المفرطة، وموشحا بالفرحة الصاخبة، والتي لم يسعها المكان، فهي فرحة العمر عندهما، فقد نجحا في الامتحانات النهائية، وبدءا في استعراض المواقف الدراسية، وما واجها من مصاعب ومشكلات، وبعدها تطرقا إلى حزمة من الأماني والأحلام التي لا تتوقف، ورغباتهما التي لا تنتهي، وقد بلغت فرحتهما وفرحة عائلتيهما ذروتها بعد أن التقيا في منزل أحمد المجاور لمنزل عائلة توني، وكانت سهرة عائلية دافئة قُدمت خلالها الهدايا للصبيين بمناسبة نجاحهما، تخللت السهرة الأحاديث الشيقة، وتناول الجميع الشاي والمرطبات، وشاركت العائلتان في

توزيع كعكة المناسبة، والتي كتب عليها (أحمد وتوني مبروك النجاح) واستمرت السهرة حتى ساعات الفجر الأولى، ثم ودعت أسرة توني جارتها، بعد أن اتفقا على أن تقوم العائلتان بالسفر مساء اليوم التالي إلى مدينة بيروت للنزهة والتسوق، وقضاء يومين كاملين هناك، حيث الشوارع المكتظة بالناس، والمجمعات التجارية، والحدائق الجميلة، ومنتزهات الألعاب الترفيهية.

رغم الاختلاف الديني بين العائلتين، فإن الرابط المتين هو حسن الجوار الذي عمّق لديهم مفاهيم الصداقة، وقوى عندهما وشائج العلاقات الإنسانية، وبقيت همزة الوصل بين أفراد العائلتين لبنان الوطن الأم الذي تربوا بين أكنافه، فقد جمعتهم الحلوة والمرة، ورقت القلوب إلى بعضها وسالت الدموع لمصاب أحدهما، وارتسمت الابتسامات، وتعالت الضحكات لفرحهما، وجمعتهم موائد الطعام، وتجانست المشاعر والعواطف وانصهرت في قالب واحد.

وما إن أرسل الفجر خيوطه الذهبية اللامعة على قرية بنت اجبيل ليقشع قطرات الندى المتزاحمة فوق أشجار التفاح وزهورها، حتى سمعت طلقات نارية، ودوي انفجارات هائلة لم تعهدها القرية منذ أمد طويل هرعت الأسرتين إلى خارج المنزل، وأخذ الفزع منهم كل مأخذ، حيث بدت المفاجأة مروعة، حطام في

كل مكان، ودمار غطى كل شيء، وأصوات يملؤها بكاء الأطفال في بؤس وحزن، مبعثه العدوان الإسرائيلي الغاشم الذي لا يعرف عنوانا، ولا يفرق بين الجماد والإنسان، يدمر كل شيء حتى لعب الأطفال وهداياهم.

تصدّع المنزلان، وتدمرا، وبات الأمان هَمُ العـائلتين، وأي أمان والجميع تحت مرمى الطائرات الإسرائيلية وحممها الملقاة في كل مكان بعبثية وعنفوان، لكنهم رغم ذلك قرروا عدم الرحيـل، والبقاء في قريتهم المنكوبة فلجأوا إلى إحدى المباني المدرسـية، وبعد تفقد الأسرتين لأفرادهما تبين أن توني قد أصيب في سـاقه إصابة بسيطة جراء شظية من شظايا قنبلة عنقودية ولم يأل أحمد جهدا، ولم يدخره في مواساة صديقه الحميم، وقام بمرافقتـه إلـى أقرب مستشفى لتلقي العلاج، وتم له ذلك فعلا، إلا أن الصديق لم يبرح مكانه وقرر مرافقة صديقه قائلا له: "لن أتركك يـا تـوني وسأبقى معك".

كان توني يتابع باهتمام بالغ ومعه صديقه ورفيقـه أحمـد أخبار المقاومة اللبنانيـة وإنجازاتهـا غيـر المسـبوقة، وحجـم الانتصارات التي حققتها في اليوم الأول للحرب، وهو مـا أثلـج صدريهما، وعلى الفور قرر أحمد المشاركة في الملحمة الجهادية رغم صغر سنه، فقال لتوني: "حان الوقت يا صديقي كـي نثـأر

لهدايانا، وبيتنا، وقريتنا، ووطننا لبنان الغالي، ولأمتنا العربية، وإنني قررت الآن وليس غدا أن أساهم مع أبطال المقاومة في كتابة التاريخ وتحطيم أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وسوف أمضي قدما إلى حيث تدور رحى الحرب، وأسهم ولو بالنذر القليل، وسألعب دورا في الدفاع عن قريتنا بكل ما أوتيت من قوة"، تركت هذه الكلمات الحماسية صداها في قلب توني الصغير، فأحس بحماس لا يقل عن حماس صديقه أحمد، وراودته الفكرة ذاتها في العمل البطولي، فقرر هو الآخر المساهمة ما أمكن له ذلك رغم الإصابة التي تعرض لها.

معا، ويدا واحدة تسلل الصبيان إلى ضواحي قريتهما، حيث بدأت معهما قصة الإثارة، دافعهما الأول حرصهما الأخاذ على نيل شرف المساهمة في رسم لوحة الجهاد مع أبطال المقاومة أينما كانوا وحيثما وجدوا، ثأرا لكرامتهما وصونا لحقوقهما.

احتدمت المعارك في أيامها الثلاثة الأولى، وأبلى مجاهدو المقاومة بلاء حسنا، وفي كل مرة يرى الصبيان علم لبنان يرفع في كل مكان من الجنوب اللبناني تغمرهما الفرحة، وفي الوقت نفسه يقول أحمد لتوني: "إن قسوة العدو قد زادت ضراوة بتدمير عشوائي للمباني الآهلة بالمدنيين العزل وتضاعفت أعداد الضحايا،

ودمرت الجسور، واستعسر نقل الجرحى والمصابين، ونقل الجثث من تحت الأنقاض.

لم تخبُ ولم تكبُ عزيمة أحمد وتوني، بل زادت صلابة، وقاما بالاندماج في فريق العمل التطوعي الميداني، وشارك الصبيان بفاعلية منقطعة النظير، وبينما هما على هذا الحال أخذ أحمد يتمتم ويقول: "اللهم إنا نعلم أن الموت نهاية كل حي، وأن مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سهما طائشا، ولا نستطيع أن نمنع عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع إذا ما فارقنا عزيزا علينا، لأن مساحة الصبر التي وهبتنا أضيق من أن تسع نازلة البلاء التي ابتلينا بها، فاغفر اللهم لنا جزعنا وبكاءنا على الموتى المفقودين".

سمع توني كلام صديقه أحمد وقال له: "أحسنت ولا فض فوك" ساقت الضرورة والواجب الصديقين والتي لا يقدر حجمها ولا مقدارها إلا من حمل بين جنبيه قلبا كبيرا وعقلا راجحا كعقليهما وقلبيهما، ساقتهما إلى حلم كبير يتعدى حدود سنوات عمرهما بكثير، لكن الفضيلة لا تعرف حدودا للأيام والسنين، بل تسكن في نفوس النبلاء ممن يعشقون الوطن، وسرت في عروق الصبيين كراهية المعتدي الأثيم، لاسيما أن قريتهما قد تعرضت للدمار وكذلك منزليهما، وباتت آمال الصبيين أبعد غورا وعمقا

إلى حد الانخراط في صفوف المقاومة، إلا أنهما لم يلقيا الموافقة لصغر سنهما، ووجهت لهما النصيحة بالاستمرار في العمل الميداني، ومساعدة الجرحى، وتقديم المعونات للأسر المنكوبة.

عاد الصديقان إلى مقرهما ليستأنفا العمل الإنساني، وبينما هما على هذا الحال تذكرا تلك الليلة السعيدة التي قضياها رفقة أسرتيهما احتفاء بنجاحهما، والوعود التي ضربت لهما بالسفر إلى بيروت، المدينة الجميلة واستطردا يرويان الأحداث الجميلة التي عاشاها مع عائلتيهما في هناء وسعادة، فقال أحمد: "كم من لؤلؤة لم تعثر يد الغواص عليها فظلت دفينة بين صدفتيها، وكم من وردة أريجة لم تكد تتفتح حتى هبت عليها ريح فأذبلتها قدر الله لنا ذلك، وعلينا أن نتجشم الأهوال والصعاب، لأن حاجة وطننا في هذه الحقبة أكبر من حاجتنا لأنفسنا".

أعجب توني بمقالة صديقه، وتعاهدا على أن لا يتركا أرض المعركة واستمرا في تقديم المساعدات للأهالي المنكوبين في قريتهم، وأصبحا محط أنظار أهل القرية وإعجابهم، ومثلا يُحتذى به في الوطنية وحب الوطن، وقد كان باعثهم إلى ذلك حمية الدين، وحب الوطن، ودارت في رأسيهما العزة الوطنية، فأبيا إلا أن يزحفا إلى التضحية وسط الحمم التي تبعثها القنابل العنقودية، ولأنهما يعلمان أن الحياة الذليلة أحقر من أن يضن بها

صاحبها مخافة أن تستبد بأغراض بيته وقريته وحرماته الأيادي الإسرائيلية الظالمة التي لا ترحم صغيرا ولا تعطف على كبير.

حولت الغارات الإسرائيلية قرية بنت اجبيل إلى حزن دائم وخراب هائل، فسفكت الدماء، وقطعت الأوصال، وثكلت النساء، ويتمت الأطفال، وأغرقت القرية في بحر الأحزان، فحزن الصديقان لذلك حزنا شديدا ولكن عزاءهما الوحيد ما كان قد قدماه من جليل الأعمال وأحسنها، وقد كتبا معا رسالة إلى أبطال المقاومة بمداد من الدم جاء فيها: "إن الله وعدكم النصر ووعدتموه الصبر، فأنجزوا وعدكم، ينجز لكم وعده، إنكم أيها الأبطال لا تحاربون رجالا أشداء، بل أشباحا من قش، وتلال من ثلج تتراءى في ظلال الأساطيل، وخيالات تلوذ بأكناف الجدران والأسوار، فاحملوا عليهم حملة صادقة تطير بما بقي من ألبابهم، فلا يجدون لبنادقهم كفا، إنهم يطلبون الحياة، وأنتم تطلبون الموت لتفوزوا بالجنة التي عرضها السموات والأرض، أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم واقتلوهم حيث ثقفتموهم.

إن كتّاب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم، ووضعوا صحائفهم بين أيديهم، وانتظروا ما تملون عليهم من حسنات أو سيئات، إن هذا اليوم له ما بعده، فلا تسلموا أعناقكم إلى الإسرائيليين أبدا".

عاد الصبيان إلى قريتهما، وقد بلغ الأسرتين خبر رغبة الصديقين في الانضمام إلى صفوف المقاومة، فأخذتهم الدهشة، ولم تستغرب والدة أحمد هذا الصنيع من ولدها؛ فهي تعرف منذ نعومة أظافره ميله الشديد للتحدي ومقت الخضوع والانهزام، فما بالك وقد اشتد عوده، وبلغ من العمر خمسة عشرة سنة.

بكت أم توني بكاء شديدا، إلا أنها لم تخف افتخارها بابنها الصبي البطل، فحضنته وضمته إلى صدرها ضما، وقالت له: "يا ولدي لا تذهب فالحرب تدور رحاها، وأنت لا تزال صغيرا على هذه الشدائد والملمات وأعلم جيدا أنك يا توني تملك الرغبة في الدفاع عن وطننا لبنان، أناشدك العدول عن هذا الرأي، وإقناع صديقك أحمد أيضا بذات الأمر؛ لأنكما ما زلتما في مقتبل العمر، ولا يزال المستقبل ينتظر منكما الكثير، وهي لا تزال تجثو على ركبتيها محاولة يائسة إقناع إبنها بعدم الذهاب، إذ دخل عليهما أحمد يتأبط حقيبته مستعدا للسفر إلى جبهة المواجهة الأمامية، على إثر ذلك وبسرعة كالبرق قفز توني آخذا ما يلزمه لرحلته، فودعا أسرتيهما وانطلقا في رحلة هي أكبر من سنهما، إلا أن الفرحة الكبرى تغمرهما دون أن يدريا بما ينتظرهما غير آبهين بالعواقب.

عند الفجر وقفا عند الجسر الصامد، وودعا معا وجه القرية كما يودع الحبيب حبيبه، وكما تودع الأمسيات والعشيات فصولها،

فانزاحت الصور، وتوالدت وتكاثرت، وتجسمت شروق الشمس، ما أروع القرص الطالع وهو محمر اللون، في شروقه يتهادى في جلال بأشعة وردية طويلة لامست أكفهما البريئة وهما في صمت ووجوم تنعكس تلك الأشعة على أكواخ القرية وحقولها كأنها خيط من نور وردي، كغلالة شفافة تنتشر وتمتد وتتحول إلى وهج ماسي، وبينما الشمس تصعد وترنو إلى كبد السماء، فإذا بالقرية تصحو على أصوات المدافع، والمواشي تُجِدُ السير في الطريق فزعا مثيرة الغبار وراءها يتبعها الرعيان.

إنه صباح يذكر أنه جيدا كما الظهيرة الغروب، والشتاء والصيف، وكل أيام قريتهما ببؤسها وشقائها، وأيام المدرسة الابتدائية ودروبها في الغدوة والروحة، وإلى المدرسة الإعدادية في قرية أخرى مجاورة.

ربت أحمد بيده على كتف صديقه توني وقال: "هيا انطلق، فقريتنا لن تبرح مكانها".

سلك الصديقان طريق الجبل، وسارا عبر أشجار البلوط المتشابكة وأشجار الأرز العالية يحملان حقائبهما وعدتهما في رحلة أقرب إلى الانتحارية منها إلى الواقعية يمشيان تارة، ويزحفان طورا، ولا يلبثان أن يتسلقا المرتفعات تساعدهما أجسامهما الرشيقة.

عظم الصبيان -أحمد وتوني- في أعين أهل القرية، وأكبروا فيهما الخصال الشريفة، والأخلاق النبيلة الفاضلة، وقالوا في أنفسهم: "إن مناهج مدارسنا وما تشتمل عليه من قواعد الحكمة، وأصول التربية، وفنون الآداب، لا تعجز أن تخرج رجالا أفذاذا يسطرون الملاحم، كما سطر الصديقان ملحمتهما، وما جمال الصورة التي رسماها، والتي عبرت بكل المقاييس عن دور النشء الأمثل في الظروف الحالكة، والملمات الجسام، فجسدا معا روح المحبة والإخاء، وقدما نموذجا للروح الوطنية الصادقة".

وصلت الرسالة إلى أبطال المقاومة، وكان الرد حاسما ونهائيا بعد شهور، وبضعة أيام من الصمود والتصدي، وما أجمل الانتصار، إنه الهدية التي قدمت إلى أحمد وتوني، وعوضتهما عن كل ما أحدثته قذائف الطائرات الإسرائيلية للعبهما التي أهديت لهما بمناسبة نجاحهما.

الانتصار كان أجمل وأعظم هدية قدمها أبطال المقاومة الوطنية بعد انتصارهم على الجيش الذي لا يقهر.

فرح أحمد وتوني فرحا شديدا، واحتفلت القرية بأسرها بهذا الانتصار الذي توجّه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وانضمت باقي القرى والمدن إلى مهرجان الفرح بالانتصار النوعي، وتبادل الصديقان التهاني، واستمرا يعملان معا بقلب واحد، وعزيمة لا

تلين، ولم ينقطعا عن المساهمة الفعالة في رفع الأنقاض وتنظيف شوارع القرية بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

علم ناظر المدرسة التي يدرس بها أحمد وتوني بالدور الذي لعباه أثناء المعارك وبعدها، فأقام حفلا تكريميا لهما بساحة المدرسة، وألقيت خلاله الكلمات التي تشيد بالروح الوطنية التي يتمتع بها الصديقان، وفي نهاية المهرجان الاحتفالي تم تكريمهما ومنحهما جوائز وشهادات تقديرية كانت بمثابة الأوسمة على الصدور لمربيهما، وتعانقت الأسرتان، وفرحتا لهذا التكريم وعرفت الوالدتان قيمة التضحية والصبر وحب الوطن.

أُخذت الصور التذكارية للبطلين الصغيرين وسط لفيف من الأهل والأصدقاء الذين قاموا برفعهما فوق الأعناق حاملين علم لبنان، ودموع الفرح وابتسامات الرضا خير عنوان لأعظم هدية في الحياة الدنيا، وخير ثواب في الحياة الآخرة.

زقـــاق

يذيبهم الصباح الخانق، ينتشرون كنمـــل الخريـــف علـــى الأرصفة الضيقة يبحثون عن خبز الحياة، الزقاق يفـــتح أحشـــاؤه لاستيعابهم، لكنه لا يضيق بهم وبازدحامهم وبكلامهم وثرثـــراتهم التي لا تنقطع، لا تقدر أشعة الشمس الوليدة أن تنفض الرطوبـــة العفنة عن تفاصيل الزقاق، فهي لا تعرف لهـــا مصـــدر، ولـــيس بمقدورها أن تمحو صحب الدخان الملتوية والمتراكمة والمنبعثـــة من فوق رؤوسهم ومن أسفل منهم، وليس بإمكانها أيضا أن تغيّـــر لون السواد الـــداكن والملتصـــق بجـــدران البيـــوت، والمقـــاهي والدكاكين، لم تتبدل رائحة الزقاق الكريهة البتة منذ أمد طويل، إلاّ أن مشهد النباتات التي تحتل الشقوق في الجدران يرغمـــك علـــى الفضول والاستغراب، وبرغم تلك السلبيات يبقي السؤال حائر قلق بين شفتي متساكنيه الذين أحبهم المكان وأحبوه، وألفهـــم وألفـــوه، يخفت الصخب أحيانا، وتنشط أقدام المارة في جلبة حـــادة أحيانـــا أخري، ترسم على أرضية الشـــارع المكســـو بـــالطين الرطـــب والأوساخ، وبقايا سجائر، وفضلات من طعـــام، ترســـم أشـــكالا تتناسب مع النعال والأقدام الحافية، ظلالا قاتمة لـــيس بالإمكـــان تمييز ملامح الوجوه، فلا فرق بين ضاحك مهلل مبتسم، وعبـــوس

شاحب متبرم، في هذا الزقاق دون غيره من الأماكن، القطط تلاعب الكلاب، فليس ثمة شيء تتنافس عليه، ولا مكان للفصيلة الجينية، وللقوارض والحشرات ملاذ آمن، ومرتع خصب، الزقاق المضيء لا يمكن له أن يموت، ما دام يعمر بالمارة والجالسين، إلاّ من إمراه بسيطة، تجاوزت منتصف طريق العمر، فبعد أن ناهزت الحاجة زهرة من العمر ستون عاماً، داهمها المرض من حيث لا تدري، وأطبق عليها اليأس، وخنقها الألم، بعد أن كانت زهرة يافعة في روض الشباب، تكد وتعمل، تجتهد من أجل صغيرها، فهو رصيدها في الدينا.

أما اليوم فهي لا تعدو كونها كتلة من تعاسة مترعة بالوحدة، تتجرع كاسات الوحشة والانكفاء، تسامر ليالي الكدر، تشعر بالملل المرتبك، يدب في سائر جسدها، الذي صار نحيلا شاحباً، يأس كبير رمي بعباءته على جسدها المصلوب على فراش في زاوية رطبة مهملة بغرفتها الحزينة، تنبش المسكينة في رماد اليأس بقوي خائرة، اعتمرت الحزن شاحبة، يتفصد جسمها عرقا، تخبئ وجهها عن الآخرين، بل حتي عن ابنها الصغير، تداري عنه أوجاعها، ولا تخبره حتى بحاجتها لأقراص الدواء، الصغير يجذبه الحنين بقوة إلى أمه المريضة يجلس لجوارها على حافه السرير، لا يعرف ماذا يقول، الكلمات تجمدت في حلقه، تنزلق

الدمعة من مآقيه التي تلونت بالحمرة الداكنة، لسانه عقدته الدهشة إثر شعوره بيد نحيلة رطبة تربت على كتفه، المكان من حولهما يغرق في خواء وصمت، تتسلل يد الأم المرتعشة إلى أسفل فراشها لتمسك بقطعة الحلوى وتعطيها للباكي الصغير، علّه يشعر ببعض السكينة، أشفقت الأم أيما اشفاق على صغيرها الذي احاطها حبا بأكمله، وبأسره غمرته عطفا، انسحب الصغير من الغرفة الكئيبة ممسكا بقطعة الحلوى، والخوف على أمه يملأ مساحة قلبه ووجدانه، فجأة يعود الصغير لغرفة أمه بعد أن همّ بالخروج، يقلب ويبحث عن علبة الدواء بين كومة لا يتصل أولها بآخرها، لم يجد علبه الدواء التي دأبت أمه على تناولها كل يوم لتتعافى، يسأل: أين الدواء يا أمي؟ هل نفدت العلبة؟ تجيب الأم في قرارة نفسها: من أين يأتيني الدواء؟ لم يعد لدينا المال، تسمع ابنها بصوت متقطع لم أعد بحاجة إليه، أنا بخير والحمد لله، لا تفكر في الأمر يا بني، إذهب وألعب مع صبيان الحي، يجيب الصغير أمه: سوف أحضره لك، أنا أعرف ذلك الدواء الذي تتناولينه كل يوم، سوف أحضره لك يا أمي لا تقلقي، يخرج الصغير إلى الشارع يسبقه ظله، يركض إلى الأمام، يرسم على الأرض أبعاده الثلاثية، يلامس ظلال أخرى يشاكس الأشياء، يجري خائفا أن تدوسه الأقدام الراجفة، كانت الشمس قد انتصفت الرصيف، كسل النهار يشق

الحي إلي نصفين، تلمع الشمس فوق عيني الصغير، المهرول إلي حيث مكان الدواء، تتجمع في قلبه خيوط ألم، العرق ينـــزف مـــن مسارب غير مرئية من جسده البدين، يغرقه في طوفان من الماء، غادرت إحدى شفتيه وراء أسنانه، إصفر وجهـــه، فجـــأة يقـــف الصغير دون حراك، انسدل صمت قاتل يمزق الفـــراغ، يـــتجهم الصغير كأن خيط أسود غامق يقوس صاحبيه ينظر خلفه، يحاول أن يخفي ما يجول بخاطره، ينصهر الصغير في ظله يمتزج بـــه، يتابع ويراقب ببصره كل المارة والـــدكاكين المرصوصـــة علـــى جابني الطريق، وفي هذه الأثناء وفي الجانب الآخر تـــنهض الأم المريضة من على سريرها وتقف أمام مرآتها متســـمرة، بـــدأت تتسلق ذاتها اعتصرها ألم ونصـــب، تحـــبس أنفاســـها، تتســـارع ضربات قلبها، تزداد حيرتها على صغيرها الذي تأخر في العودة إلى البيت، تحس الأم المريضـــة بـــأن كـــل الـــدقائق مغشوشـــة بالارتباك، وكل الفضاءات حبلي بعواصف اقتلعت كل الأشـــياء، حتى وشاحها البني المطرز سقط من على رأسها، بالكاد تمسك به قبل أن يقع على الأرض، عزفت السحائب رعداً متعدد الإيقاعات، هكذا تشعر بأنها تتوقف عند محطـــات البـــؤس العديـــدة، يغمـــر حجرتها السكون القاتل، في كل زاوية من زوايا الغرفة شبح للقلق معلق على الجدار، تجر رجليها في اعياء، تفكر فـــي صـــغيرها،

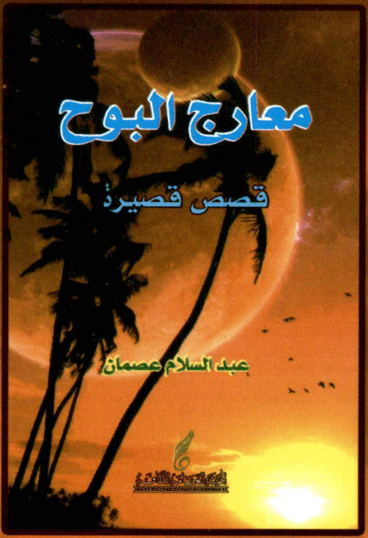
تسمرت في مكانها، كأن جميع أعضائها أصابها الشلل، تنظر من شباكها إلى الزقاق المطل على شرفة البيت ليس سوي ظل معتم يسيطر على آخر الزقاق، الصغير هناك لا يأبه لأي شيء سوي الحصول على علبة الدواء، يقترب من الصيدلية، يتردد في الدخول إليها، ليس معه النقود ليحصل على طلبه، يحدد بناظريه مكان العلبة، لقد تعرف عليه من قبل، ينظر الصغير إلى الجالسين في المقهى المقابل للصيدلية، يشعر بأنهم يرمقونه بنظراتهم الحادة، يحس بالتوتر، يخطو خطوات إلى الخلف، يتابع النظر إلى دواء أمه، يتمني أن لو اختفت تلك المرأة الصيدلانية لبرهة، لا تشعر المرأة بأي حركة مريبة داخل الصيدلية، يباغت الصغير المرأة، يندلف إلى حيث موضع الدواء، وبحركة خاطفة وسريعة يأخذ العلبة، وبين رمشة عين وانتباهتها يصبح على بعد خطوات خارج الصيدلية، يطلق ساقيه للريح بغير هدى، أصيبت الصيدلانية بالذهول والغرابة، خرجت مسرعة طالبة النجدة، تصيح المرأة بصوت عال، أمسكوا الصبي، لقد سرق الدواء، امسكوه، وفي الأثناء يتعثر الصغير، ينزلق واقعا على الأرض، تناثرت علبة الدواء من يده، وفي اللحظة تمسك الصيدلانية بالصغير، تنهال عليه بالضرب وتصعقه بكلمات لا يفهمها، يجهش بالبكاء، متوسلاً مستجديا المرأة، لم ينفعه لا استجداؤه ولا حتى توسله، يحاول أن

ينفذ بجلده ويخلّص نفسه من المرأة القابضة عليه بعنف وقوة شديدين، لم تتركه وشأنه، ينظر الصغير إلى علبه الدواء، يمد يده محاولا الإمساك بها، يصرخ ويردد: أرجوك سيدتي، أتركيني وشأني، إن أمي تصارع الألم، إنها مريضة وتحتاج إلى هذا الدواء، من فضلك سامحيني سوف أدفع لك ثمن الدواء غداً، يراقب أحد مرتادي المقهى المشهد عن كثب، يهرول الرجل مسرعاً لإنقاذ الصغير من يد المرأة التي ما أنفكت تنهر الطفل وتجرعه أقسى الكلمات، تلومه وتعاتبه وتضربه حتى كلّ جيدها والصغير في هذه السن لا يحمل أوزار فعلته، ولو علمت الصيدلانية بما دعاه لفعل ذلك لغفرت له صنيعه، وسامحته على خطاءه، يمسك الرجل بالصغير من يده، يربت على كتفه، يلاطفه بابتسامه هدأت من روعه، وأعادت له صفاؤه، دفع الرجل ثمن الدواء، وشكره على قيامه بواجبه تجاه أمه المريضة، تنفس الصغير الصعداء، عاد فرحا إلي الزقاق الذي ابتلعته العتمة، يحضن الصغير أمه، يضع في يدها علبه الدواء أمام ذهولها وحيرتها، فرحت الأم بعودته ورؤيته له اكثر من فرحها برؤية دوائها، لكنها لم يفتها أن تسأله من أين أتيت بالنقود لكي تحصل على الدواء؟ أخبرني يا ولدي من أعطاك المال؟ يجيبها وقد بدى على وجهه الانشراح والرضا: الناس الطيبون في حيينا كثر،

وأهل المعروف لن ينقطعوا من الدنيا، تبسمت الأم وحمـــدت الله، خلدت إلى فراشها، الليل طويل على الأم المريضة وها هو يسحب آخر ذيوله وينحني أمام الفجر الوليد، أشعة النور الباهت تشـــاكس أسطح المباني العتيقة، تحمل معها الفرح المبهج، لم يكن صـــباح اليوم التالي كأي صباح، المدينة ساكنة كأن أهلها مـــن الأمـــوات، تنهض المرأة دونما شعور بالألم والوجع، ترخي ظفيرتهـــا فـــوق حاجز الشباك ظلا طويلا، أسمر حزين، يحركه ضوء الشـــمس، قصّ الصغير على أمه حكاية الأمس ببـــراءة فائقـــة، ونظراتـــه الساذجة ربيع دائم، الفرحة تسرق من الإغفاءة نظرة حانية إليها، أحس بصرخة مكتومة، تتردد أصداؤها في أحشائه، أحس بأن عينا والدته تنظران إليه بما يشبه الرجاء، ومسحه غامضة رمادية تظلل سطح البحر، تجسمت فـــي عينـــاه النظـــرة الدهشـــة، والعيـــون الشاخصة، مالت الأم بيدها في ارتخاء وكســـل، علـــى ملامحهـــا المنهكة، وبين ثنايا جبينها ظهرت خطوط سوداء قاحلة لا يرويها الاّ العرق، تبحث عن طوابير الذاكرة، عـــن وجـــه يتســـع لكـــل التضاريس، تنفض عن جسدها غبار الزمن البائس، تحس بالموت يقترب منها دائما، شعور يداهمها بين الفينة والأخـــرى، يســـرع الزمن خطاه، رحلت الأم المريضة عن الدينا راضية عن صغيرها الذي نضج وترعرع، أكمل دراسته ونجح بتفوق، صـــار طبيبـــا

لامعاً، يدير مصحة علاجيه في بلدته، قرر أن يحـــدد يومـــاً فـــي الاسبوع لعلاج المرض مجاناً في عيادته، لم يخطر بباله أن يكون من بين مرضاه ذلك الرجل الذي أنقده من الصيدلانية التي انهالت عليه بالكلمات والضرب، حين سرق الدواء لأمه، حاول الطبيـــب أن يذكّر الرجل بذلك الموقف الإنساني الكبير، لكنه عبثا يحـــاول، قام برد الجميل للرجل والوقوف معه بكل ما أوتي مـــن مهـــارة طبية، لازمه طوال فترة علاجه واستمر معه عدة أيام، يسهر على راحته، ينكب على علاجه إلى أن شفاه الله وخرج من المصـــحة دون أن يدفع درهما واحداً، وأصبح منذ ذلك اليوم صديقة الحميم ورفيقة الدائم.

الفهرس



الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE